دراسات حول المدينة المنورة
(٥)

المدينة

في صدر الإسلام

الحياة الاجتماعية والسياسية والثقافية

تأليف
الدكتور محمد العيد الخطراوي

مكتبة دار التراث
المدينة المنورة - ص.ب ٢٨٨٥٢

مؤسسة علوم القرآن
دمشق - بيروت

بسم الله الرحمن الرحيم

المدينة

في صدر الإسلام

الطّبعة الأولى
١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م

تقديم

أحمد ربي تعالى حمد الشاكرين، وأصلي وأسلم على رسوله الأمين، وعلى آله وأصحابه الغر الميامين.

وبعد

فهذا هو الكتاب الخامس من سلسلة: (دراسات حول المدينة المنورة) التي أخذت نفسي بمتابعة العمل فيها وإخراج حلقاتها حسبما يهيئه الله لي من القدرة والعافية، لا أبتغي بذلك سوى وجهه تعالى في خدمة هذا البلد الطيب، مُهاجَر الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه، رزقنا الله شفاعته يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، ولا غرو أن في ذلك خدمة أيضاً لتراث الجزيرة العربية كلها ولتراث العروبة والإسلام في كل مكان، ولا عجب إن قصرت جلّ جهدي على النهوض بهذه المهمة، التي قد تبدو في أعين بعض الناس هينة وضيئلة القدر، فعذري في ذلك الإقلال وضعف الطاقة وضيق الحيلة، وحسبي الله ونعم الوكيل.

بقي أن أذكر أنَّ محتوى هذا الكتاب يمثل في أصله الباب الثالث من رسالتي للدكتوراه، وهو بعنوان: (المدينة في ظلال الإسلام). ولا أنسى في هذا التقديم أن أقدم الشكر جزيلاً لكل قارىء أسهم في استمرار هذه السلسة بحسن استقباله للأجزاء التي طبعت منها وتشجيعه لي بقراءتها والتفاعل معها، ذلك التشجيع الذي جعلني أمضي في أداء المهمة في ثقة وإصرار، فلذلك القارىء الغائب عني القريب مني. حبي وامتناني وتقديري من الأعماق، والحمد لله أولاً وآخراً، ومنه السداد والتوفيق.

د. محمد العيد الخطراوي



الفَصْل الأوَّل

المجتمع الجديد في المدينة

أثر الإسلام في وظيفتها

أ - البنية البشرية
ب - البنية الدينية
جـ - البنية الاجتماعية
د - البنية الاقتصادية
هـ - البنية السياسية



- ١ -

إن كل متتبع لتاريخ المدينة المنورة يدرك أن هذا البلد مدين في استمراره التاريخي بالدرجة الأولى للهجرة النبوية المباركة. فهي التي نقلت المدينة إلى مكان الصدارة بين مدن الجزيرة العربية، وربطتها بالدعوة الإسلامية، ثم صنعت منها العاصمة الأولى لدولة الإسلام وأعطتها أزمّة القيادة في كل صوب، وهيأت لها بعد ذلك أن تبقى مرتاداً لكل مسلم من جميع أنحاء العالم، فإذا كانت مكة قد حظيت بالمسجد الحرام، فإن المدينة ظفرت بالمسجد النبوي الشريف، وكلاهما مما تهفو له القلوب وتشدّ له الرحال، وخصّها صاحبُ الرسالة صلوات الله وسلامه عليه بأنها مأرِز الإيمان فقال: «إن الإيمان ليأرز إلى المدينة كما تأرز الحية إلى جحرها»[1].

- ٢ -

إن الإسلام الذي حملته الهجرة النبوية إلى المدينة غيَّر وظيفتها في الحياة، فبعد أن كانت وظيفتها في العصر الجاهلي زراعية تجارية بحتة، تحوّلت بحكم الإسلام إلى وظيفة دينية قيادية، فكانت مصدر الإشعاع الذي أنار للعالم كله دروب الخير والحق وهداه سواء السبيل، وكانت منطلق الجيوش الفاتحة، ومصدر القرآن والسنة والفقه والنظام، وحتى بعد أن انتقلت الخلافة

(١) رواه البخاري، ومسلم، وابن ماجه، والإمام أحمد.

منها إلى دمشق، فإنها ظلّت موئلاً للعلم والعلماء ومصدراً للتشريع، فإن مالكاً رضي الله عنه كان إذا أعوزه النص اعتمد عمل أهل المدينة وبنى عليه كثيراً من المسائل الفقهية، بناء على أن عملهم إنما كان في حقيقته ترجماناً لسنة رسول الله ﷺ القولية والفعلية والتقريرية، وكذلك فعل غيره من بعض أهل العلم كابن تيمية.

وقد كان قيام المدينة في العصر الجاهلي مستنداً في واقعه إلى عاملين[1] رئيسين، هما: الموضع، والموقع.

فأما من حيث الموضع، فإن المدينة كانت واحةً خصبة تعيش في خضم الصحراء ومتلاطم الرمال، متميزة، كثيرة الموارد، تنمو فيها الزروع والنخيل وتجري فيها الوديان، ولا يخفى أن هذه الصفة تعطي الموضع مكانة في قلوب الناس جميعاً وبخاصة في منطقة كالجزيرة العربية معروفة بالجدب وشح المياه، وهو السبب الذي جذب إليها كل من تواردوا عليها، واتخذوها مستَقرّاً وسكناً، وحاربوا من أجل الاستيلاء عليها، سواء في ذلك العَبيليون، والعمالقة، واليهود، والأوس، والخزرج، وهذا يفسر ما رجحه المؤرخون من أن أول ما عُمر منها هو قرية (العيون) وهي بقعة محصورة بين جبل أحد ووادي قناة، شمالي المدينة، لأنها كانت ولا تزال من أغنى مواضع المنطقة بالمياه وأصلحها للزراعة، وكان الانتشار السكّاني كله في المدينة تبعاً لهذه القاعدة، فكانت قباء والعوالي والجرف بأقسامه إلى ما يقرب من جبل سلع أيضاً من أقدم الأماكن السكانية فيها، وجذب وادي بُطحان ووادي مُذَينيب ووادي مَهْزور بقية السكان.

وأما من حيث الموقع، فقد كانت المدينة تقع على طريق تجارية هامة - كما سبق أن أشرنا[2] - تربط بين شمال وجنوب، مما جعل تبّعاً يطرقها فيما

(١) المدينة المنورة للدكتور عمر الفاروق سيد رجب ص ٨ معهد البحوث والدراسات العربية ١٩٧٧م.

(٢) انظر الكتاب الثالث من هذه السلسلة.

طرق من المحطات التجارية، ليبسط عليها شيئاً من هيمنته ويطمئن إليها، وكذلك فعل الملك البابلي نبونيد، وكانت مرتاداً للتجار والمتمولين من كل ما حولها من بلاد.

وهناك عامل آخر من عوامل قيامها، ولكنه عامل ثانوي جداً، ذلكم هو هذه التحركات البشرية الدائبة التي عرفت بها الجزيرة العربية في العصر الجاهلي تحت تأثير الأسباب المختلفة والتي كانت في تحركاتها تنشد الموضع والموقع، ولا غـرو أن من ظفر منهم بسكنى المدينة كان موفقاً ومحظوظاً إلى حد كبير.

- ٣ -

والسؤال الذي يطرح نفسه هو: هل كان في استطاعة المدينة أن تحقق استمراراً تاريخياً ذا بال بعد ظهور الإسلام طيلة هذه القرون اعتماداً على عوامل ظهورها الأولى وحدها؟ وما الصورة التي كانت يمكن أن تكون عليها بغير الهجرة النبوية؟.

والحق أن كثيراً من المدن المعاصرة لها والتي كانت تحتل معها مكان الصدارة داخل الجزيرة العربية قبل الوجود الإسلامي والتي كانت تقوم بنفس وظائفها، لم تستطع أن تحافظ على شخصيتها المدنيّة، فزالت من (الخارطة) بالتدريج نهائياً، أو فقدت كثيراً من مقوّمات حياتها وانتقلت إلى الصفوف الخلفية في الحياة العربية، حتى كادت مواقع ليست بالبعيدة من المدينة أن تنمحي من ذاكرة التاريخ كخيبر وتيماء، وهما من الواحات المشهورة بالخصب والنماء، وقل شأنهما كما قل شأن بلاد أخرى كانت تستمد أصالة وجودها من وقوعها على طريق التجارة القديم كزبيد والبتـراء وأيلة ومعان. وتحـولت الطائف إلى منفى، ينفي إليه الرسول ﷺ بعض المغضوب عليهم من أتباعه، فقد نفى إليها الحَكَم بن العاص والد مروان[1] بن الحكم، الذي كان يسيء

(١) ذكر صاحب التراتيب أن الحكم بن العاص كان يحاكي الرسول في مشيتـه، وفي بعض =

الأدب مع سيد الأمة، وظلت إقامته محددة فيها إلى عهد عثمان، وما كان يزيد شأن المدينة حينئذ عن واحة صحراوية تتوسد الرمال والحرار، فالمدينة التي نعرف كانت ولادتها مع الهجرة وتشكَّلَ تاريخُها بعد ذلك مع النتائج التي ترتبت عنها. ولولا وجود البيت الحرام في مكة لتزحزحت كثيراً أمام مكانة المدينة الجديدة عن مكانتها التي كانت عليها، ومع ذلك فقد تأثرت بحدث الهجرة إلى حد كبير، بحيث تحولت الأنظار كلها عنها إلى المدينة وارتبطت الأفئدة بها وحامت الآمال عليها، وليس بدعاً أن تُغيِّر الوظائف الدينية من أهمية المدن وتقلب ميزان القوى بين البلاد وتذهب بمدن أخرى، فقد كانت مكة نفسها قائمة على أساس ديني بواد غير ذي زرع ﴿ رَبَّنا إني أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتي بِوادٍ غيرِ ذي زَرْعٍ عندَ بَيْتِكَ المُحَرَّمِ ، رَبَّنا لِيُقِيموا الصَّلاةَ فاجْعَلْ أفئدةً مِنَ النَّاسِ تَهْوَي إليهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَراتِ لَعَلَّهم يَشْكُرَونُ ﴾[1]، وقامت القدس أيضاً على هذا الأساس، ولا تزال مصطرعاً للأديان يسيل على جوانبها الدم وتضطرم النيران، وكان الدين كذلك، من أهم عوامل تمدين البصرة والكوفة والفسطاط والقيروان.

- ٤ -

وكما كان للهجرة النبوية تأثير على وظيفة المدينة، منحها القدرة على الاستمرار والخلود، فإنها كانت ذات أثر أيضاً على تركيبها السّكنيِّ والسّكاني وعلى حياتها الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والبشرية. وفي الواقع لم تكن

= حركاته، فسبَّه وطرده، وقال له: كذلك فلتكن، فكان الحكم متخلِّجاً يرتعش، وقد عير عبد الرحمن بن حسان، مروان بن الحكم بذلك، فقال يهجوه:

إنَّ اللعين أبوه فارْمِ عظامه ... إن تَرمِ ترمِ مُخلَّجا مجنونا
يمشي خميصَ البطن من عمل التُّقى ... ويظلُّ من عمل الخبيث بطينا

وفي زمان عثمان رده إلى المدينة، قيل: بنص عنده في ذلك. وقيل: لأجل القرابة فقط وبلوغ العقوبة حدّها. (التراتيب ١: ٣٠١).

(١) سورة إبراهيم، آية: ٣٧.

الهجرة النبوية هي العامل الوحيد ذا الأثر البعيد في تغيير المجتمع المدني، ولكنها كانت هي العامل الرئيس من جملة عوامل أخرى هامة، وتتمثل هذه العوامل في أمور نشأت عن تلك الهجرة وكانت تابعة لها في الوجود، أهمها: عهد الرسول ﷺ بكل ما حواه من تنظيم وتشريع، ومنجزات الخلفاء الراشدين من بعده، وما تخلل العهدين من غزوات وفتوح.

وسنناقش فيما يلي بعض مظاهر ذلك التأثير:

أ ـ البنية البشرية

كانت البنية البشرية في المدينة خلال العصر الجاهلي قائمة على عنصرين أساسيين هما: الأوس والخزرج، واليهود، ينضم إليهما ـ كما قلنا ـ عنصر ثالث ثانوي ليس له تأثير يذكر في مجريات الأحداث، وهو فئات من فخوذ عربية صغيرة من بلي وغيرها، وهذا التكوين وإن بدا لأول وهلة تكويناً بسيطاً سهلاً بعيداً عن التعقيد فإننا بعد النظرة المتعمقة ندرك أنه كان في غاية التعقيد، ذلك أن العلاقة بين هذه العناصر لم تكن علاقة تفاهم ووئام، بل كانت على العكس من ذلك علاقة حقد وحذر وتربص، يستوي في ذلك الحال بين العرب واليهود، وبين العرب والعرب، واليهود واليهود. فقد استنزفت الحروب والأحقاد الكثير من طاقاتهم، وأهدرت جزءاً كبيراً من مجهوداتهم وذهبت بها أدراج الرياح، وأوصدت الأبواب أمام كل تقارب بنّاء بين هذه العناصر ووضعته موضع المستحيل، وقد ظهرت بعض أعراض هذا التنافر حتى في ظل الإسلام، رغم أن الإسلام هذّب من طباعهم ووجّههم وجهة التنافس على الخير. فشاس اليهودي يمر على جمع الأنصار من الأوس والخزرج وقد جمع بينهم الإسلام، فيحز ذلك في نفسه، فيرسل إليهم من يندس بينهم ويذكرهم بأيامهم، ويكاد يفلح في الإيقاع بينهم لولا أن تداركهم رسول الله ﷺ في اللحظات الأخيرة وهم على ظهر الحرة يتشانؤون. وحين تأذّى رسول الله ﷺ من أصحاب الإفك قال أُسَيْد بن حُضَير الأوسي:

يا رسول الله، إن يكونوا من الأوس نَكفِكَهُمْ، وإن يكونوا من إخواننا من الخزرج فمُرْنا بأمرك، فوالله إنهم لأهلٌ أن تُضرب أعناقهم، فقام سعد بن عبادة الخزرجي، فقال: كذبْتَ لعمرُ الله، لا تضرب أعناقهم، أما والله ما قلتَ هذه المقالة إلا أنَّك قد عرفْتَ أنهم من الخزرج، ولو كانوا من قومك ما قلتَ هذا، فقال أسيد: كذبتَ لعمر الله، ولكنك منافق تجادل عن المنافقين، وتساورَ الناس من الحيين حتى كاد يكون بينهم شر[1]. وفي يوم السقيفة قال أسيد بن حضير لقومه الأوس أيضاً: يا معشر الأوس قوموا فبايعوا، فوالله لو وليته عليكم الخزرج لظل لها هذا الأمر عليكم إلى آخر الدهر، فقاموا وبايعوا أبا بكر. ولم يكن كذلك المجتمع المكي فهو مجتمع عربي خالص، ولم يحدث بين أحيائه القرشية أية حروب، فإذا وقع أي نزاع لا يلبثون أن يتغلبوا عليه بالروح الأخوية ويقضوا عليه في مهده، قبل أن يتفشى ويكبر، ويصبح عاملاً من عوامل تضعضع المجتمع.

وقد قام التركيب السكَنيّ في المدينة أيضاً على هذا الأساس من التركيب السكاني، فكان اليهود يسكنون في نمط أحياء مغلقة، تكاد تشكل مساكنهم على وجه العموم، قوساً تحيط بالمساكن العربية، بينما مساكن الأوس والخزرج بصفتهم يمثلون الجانب الأقوى والأكثر عدداً، اتخذت تشكيلاً مبعثراً يفصل بين أجزائه مواضع خالية، موزعاً بين عاليتها وسافلتها.

وفي صدر الإسلام نلاحظ أن المسجد النبوي كوَّن نواة للمدينة الحديثة تتجاذب من حوله البيوت قرباً وبعداً، وغدا المحور الذي تدور عليه حياتهم، بحيث أصبح القطب الذي يضبط اتجاهات[2] نموها وامتدادات شوارعها منذ ذلك الحين حتى عصرنا الحاضر، ولم يعد هناك أي موضع آخر قديم أو حديث في المدينة يمكن أن ينافسه من حيث قوة جاذبيته، وعمرت في المدينة[3] أماكن لم تكن عامرة من قبل، لعل أهمها منطقة الجرف ووادي

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢: ٣٠٠.

(٢) المدينة المنورة للدكتور عمر فاروق ص ١٢.

(٣) المدينة بين الماضي والحاضر ص ٤٠٦.

العقيق في الغرب، ومنطقة الغابة شمالي مجمع أودية المدينة، وامتدت الرقعة المعمورة إلى ما يقارب حدودها الحالية، وشُغِلت المساحات والأرض الفضاء داخل المدينة بعد عهد الرسول بمعسكراتٍ تلبيةً للفتوح ونشر الدعوة. واتخذ لها الرسول جبانة عامة هي بقيع الغرقد في الجهة الجنوبية الشرقية من المسجد، وهي المقبرة الوحيدة للمدينة حتى الآن، وليس معنى هذا أن جميع السكان تكدّسوا حول المسجد فذلك ما رفضه الرسول ﷺ، فإنه لم يأذن لبني سلِمة حين سألوه أن يأذن لهم في الانتقال من مساكنهم إلى قريب من المسجد، وأمرهم أن يبقوا في مساكنهم التي كانت تقع بين سلع وحرة الوبرة، حفاظاً منه ﷺ على التوزيع السكاني السليم في عاصمة الإسلام الناشئة، وتوجيهاً منه لهم بأن يشتغلوا في أمور دنياهم كما هو مطلوب منهم أن ينشغلوا بأمور الدين.

وتكاد تنحصر العناصر البشرية التي اتخذت هذا التشكيل السكني في عهد الرسول ﷺ في ثلاثة عناصر، هم الأوس والخزرج الذين أصبحوا يحملون اسم الأنصار، والقرشيون الذين حملوا اسم المهاجرين، واليهود الذين عرفوا بأهل الكتاب، وبعد غزوة بني قريظة اختفى العنصر اليهودي إلى غير رجعة وحل محله عنصر خليط من سبي الغزوات والفتوح في صورة خدم وعبيد وإماء. وما أكثر ما كانت الجواري في عهد الخلفاء الراشدين موضع التسرِّي والإنجاب!. وما أكثر ما كنّ أمهات لعديد من البنين والبنات!. وما أكثر ما كان من هؤلاء البنين أصحاب الأسماء اللامعة في الحياة الدينية والسياسية!. وحسبنا في تصوير ذلك أن نذكر رواية الأصمعي عن ابن أبي الزناد، قال: كان أهل المدينة يكرهون اتخاذ أمهات الأولاد، حتى نشأ فيهم القُرّاء السادة: علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، والقاسم بن محمد، وسالم بن عبد الله ففاقوا أهل المدينة علماً وتقى وعبادة وورعاً، فرغبوا حينئذ في السراري.

وقال غيره لما قدم سبي فارس على عمر كان فيه بنات يزدجرد،

فقوّمن، فأخذهن علي، فأعطى واحدة لابن عمر فولدت له سالماً، وأعطى أختها لولده الحسين فولدت له علياً، وأعطى أختها لمحمد بن أبي بكر فولدت له القاسم[١].

كما انفتح باب الهجرة لكل المسلمين من غير القرشيين وأصبحت لهم منازل يعرفون بها، فهذه منازل جهينة وتلك منازل غفار، ومنازل لأقوام آخرين، ومع ذلك فقد ظل العنصران البارزان هما المهاجرين والأنصار.

وإذا كنا من خلال كلام ابن حزم استطعنا أن نحزر عدد سكان المدينة في العصر الجاهلي أو في فترة من فتراته على الأقل بما يربو على مائتي ألف نسمة[٢]، وخلصنا بعد ذلك إلى أن هذا العدد وإن لم يخل من شيء من المبالغة فإنه يدل في مضمونه على أنهم كانوا ذوي عدد كبير على شكل من الأشكال، فإننا في صدر الإسلام نظفر ببعض الأخبار في كتب السيرة، قد تساعد على حزر عدد السكان إبان العهد النبوي على الأقل.

فقد ذكروا[٣] أن عدد المقاتلة من يهود بني النضير كان سبعمائة مقاتل. وقيل هذا العدد كان في بني قينقاع، وكان مقاتلة بني قريظة تسعمائة. . . فمجموع مقاتلة اليهود على هذه الرواية ألفان وثلاثمائة، فإذا أضفنا إلى هذاالعدد مثليه من الشيوخ والأطفال والنساء، بلغ تعداد اليهود من هذه البطون الثلاثة ستة آلاف وتسعمائة نسمة.

أما بالنسبة للأوس والخزرج فقد ذكروا أن[٤] مقاتلتهم يوم فتح مكة بلغوا أربعة آلاف مقاتل وليس معنى هذا أن كل مقاتلتهم اشتركوا في الفتح، فذلك ما لم يقل به أحد، ولكن المفترض أن يكون هذا العدد يمثل جلّ

---

(١) تهذيب التهذيب ٣: ٤٤٦ ـ ٤٤٨، ولطائف الثعالبي ٧٥.
(٢) انظر الكتاب الثالث من هذه السلسلة.
(٣) السيرة النبوية للندوي ص ١٣٣.
(٤) الإمتاع ١: ٣٦٤، والمرجع السابق ١٣٩.

مقاتلتهم، فإذا فرضنا بشيء من التسامح أن مثل نصف هذا العدد قد تخلف عن القتال لسبب من الأسباب، مع علمنا بمدى حرصهم الشديد على مصاحبة الرسول ﷺ في غزواته فإن جملة عدد المقاتلة فيهم يكون ستة آلاف، وإذا نحن سلكنا فيه ما سلكناه في بطون اليهود، أي أضفنا له مثليه، كان مبلغ تعدادهم ثمانية عشر ألفاً.

وقد كان المهاجرون الأوائل من القلة بحيث كانت أسماؤهم معروفة لدى الرواة، ثم توالت الهجرات حتى بعد الفتح رغم أن الرسول ﷺ أوقف زحفها بقوله: «لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونيّة»[1]، لو فرضنا أن عدد هؤلاء المهاجرين جميعاً بلغ ثلاثة آلاف نسمة فإن مجموع سكان المدينة يكون آنذاك بلغ حوالي ثمان وعشرين ألفاً.

ولنضف إليه ألفي نسمة من الجواري والعبيد، ليبلغ العدد ثلاثين ألفاً، وهو عدد سكاني معقول جداً عاشته المدينة كثيراً في فترات حياتها، ولعله يكون معدلها التاريخي العام، وإن تذبذب نزولاً وارتفاعاً بحكم بعض الظروف والملابسات.

هذه هي البنية البشرية والتركيب السكني والسكاني للمدينة كما تصورتها من خلال دراستي لأخبارها، علها تساعدنا على تفسير ما عسى أن يصادفنا من ظواهر أثناء هذه الدراسة.

* * *

ب- البنية الدّينيّة

لا شك في أن للبنية البشرية أثرها الفعال في تحديد مسارات المجتمع، ولكن من المؤكد أنه قد تنضم إليها عوامل أخرى تسهم أيضاً في تلوين الصورة، والمجتمع المدني في ظل الإسلام لم يكن قائماً على أساس بشري

---

(١) رواه البخاري.

عرقي فقط، وإنما كان لبنيته وجه آخر قائم على أساس من الدين والعقيدة، ولا بد للباحث أن يستحضر في ذهنه هذه الناحية وهو يحلل تلك البنية إلى وحداتها الأصلية، فإن تأثير هذه الوحدات الدينية ـ في الحقيقة ـ كان أبعد أثراً من الوحدات العرقية، فنحن إزاء دعوة جديدة تلغي التعامل على أساس الأحساب والأنساب، ويجهر قرآنها بقوله تعالى: ﴿ يا أَيُّها النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾[1]، ويعلن نبيّها: «إن كل الناس لآدم وآدم من تراب».

وما دام الأمر كذلك فإنه يجب علينا تحديد تلك الوحدات ذات الأثر الفعال في ظلي هذا المفهوم الجديد. ففي عهد النبوة انقسم المجتمع إلى أربع فئات دينية هي:

١ ـ المسلمون:

وهم أُناس اجتمعوا على توحيد الله والاستسلام له بالطاعة والخلوص من كل شرك، فما أتاهم به الرسول ﷺ أخذوه وعملوا به، وما نهاهم عنه كفّوا عنه وتركوه، تحت رايته يعملون وبإشارته يتحركون، فهم كلٌّ في واحد، وواحدٌ في كل، يرون أن من حق الله عليهم أن يحملوا دينه إلى الناس، لا في المدينة وحدها، بل في العالم أجمع، ويحسون أن من واجبهم أن يلغوا الفواصل الزمنية، ويعيشوا الحياة بجميع أبعادها، تحدو خطاهم غايتان عظيمتان، غاية عاجلة تتمثل في المستقبل القريب في الدنيا، وغاية آجلة تتمثل في المستقبل البعيد في الآخرة، ﴿ وما عندَ اللَّهِ خيرٌ وأبقى ﴾[2] ﴿ والباقياتُ الصالِحَاتُ خيرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَواباً وخيرٌ مَرَدّاً ﴾[3].

وهؤلاء المسلمون بينهم أنصار، آووا الرسول وناصروه حين تخلت عنه

---

(١) سورة الحجرات، آية: ١٣.

(٢) سورة القصص، آية: ٦٠.

(٣) سورة مريم، آية: ٧٦.

القبائل وفتحوا صدورهم لاستقباله واستقبال أصحابه، ليحموه مما يحمون منه النفس والأهل والولد، ضاربين بغضب قريش وغيرها من القبائل عرض الحائط، لا يبتغون من وراء ذلك غير رضا الله ورسوله.

ومنهم المهاجرون الذين عاصروا مولد الدعوة، وأوذوا في سبيلها وصبروا، ولقوا على أيدي أعداء الله في مكة ما لقوا من البلاء والعذاب والتنكيل، فثبتوا على دينهم حتى أذن الله لهم بالهجرة إلى المدينة، فتركوا أهلهم وأموالهم وديارهم من أجل الله، فكانت هجرتهم لله ورسوله.

ومن المهاجرين والأنصار سابقون أوّلون اتبعوا رسول الله في ساعات كفاحه الأولى ووقفوا معه في الأيام العسيرة العصيبة. ومنهم متأخرون في الإيمان والنصرة والهجرة. وتلك الأسبقيات كان لها ما كان بعد ذلك من شأن، وقد قال عمر حين نظم ديوان العطاء، وأنكر عليه بعضهم عدم التسوية فيه: (أنجعل من قاتل رسول الله كمن قاتل مع رسول الله؟) ووقف أبو بكر يقرر من أمسك عن مبايعته بالخلافة بأحقيته فيها، فقال: ألستُ أسبقكم إسلاماً؟ ألستُ ثاني اثنين في الغار؟.

ورغم الإخاء الذي أقامه الرسول ﷺ بين المهاجرين والأنصار فإن العلاقة بينهما لم تخل مما يكون بين أبناء الجماعة الواحدة من خلاف وتنافس، ولكن قوة الإيمان المختزنة في قلوبهم كانت في الغالب كفيلة بتذويب كل خلاف وإماتة كل نزغة شيطانية، ومن ذلك حادث جهجاه الغفاري أجير عمر حين اقتتل على الماء مع سنان بن وبر الجهني حليف الخزرج، فصاح سنان: يا معشر الأنصار، وصاح جهجاه: يا معشر المهاجرين، وقال عبد الله بن أبيّ حينئذ مقالة سوء[1]. كذلك ما كان من تعريض حسان بالمهاجرين من مضر وقد رأى كثرة الوافدين منهم على المدينة مسلمين بقوله:

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢: ٢٩٠ - ٢٩١.

أمسى الجلابيبُ قد عزُّوا وقد كَثُروا وابنُ الفريعةِ أمسى بيضةَ البلدِ[1]

وكذلك وَجِد الأنصار حين فرّق الرسول غنائم حنين في قريش وقبائل العرب الأخرى ولم يعطهم شيئاً حتى كثر بينهم اللغط وقال قائهم: (لقد لقي والله رسول الله ﷺ قومه. فدخل عليه سعد بن عبادة، فقال: يا رسول الله، إن هذا الحيّ من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم، لما صنعت في هذا الفيء الذي أصبتَ، قسمتَ في قومك، وأعطيتَ عطايا عظاما في قبائل العرب، ولم يك في هذا الحي من الأنصار شيء. قال: فأين أنت من ذلك يا سعد؟ قال: يا رسول الله، ما أنا إلا من قومي، قال: فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة، قال: فخرج سعد، فجمع الأنصار في تلك الحظيرة. قال: فجاء رجال من المهاجرين فتركهم، فدخلوا، وجاء آخرون فردهم، فلما اجتمعوا له أتاه سعد، فقال: قد اجتمع لك هذا الحي من الأنصار، فأتاهم رسول الله ﷺ فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: يا معشر الأنصار: ما قالةٌ بلغتني عنكم، وجِدة وجدتموها عليّ في أنفسكم؟ ألم آتكم ضلّالاً فهداكم الله، وعالة فأغناكم الله، وأعداءاً فألّف الله بين قلوبكم؟ قالوا: بلى.. الله ورسولُه أمنُّ وأفضلُ، ثم قال: ألا تجيبوني يا معشر الأنصار؟ قالوا: بم نجيبك يا رسول الله؟ لِلّه ولرسولِهِ المنُّ والفضلُ. قال ﷺ: أما والله لو شئتم لقلتم، فلصدَقْتم، ولصُدِّقْتُم، أتيتنا مكذَّباً فصدّقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريداً فآويناك، وعائلاً فآسيناك[2]. أوجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم في لُعاعةٍ[3] من الدنيا تألّفْتُ بها قوماً ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم، ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعوا برسول الله إلى رحالكم؟ فوالذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت

---

(١) المرجع السابق ٢: ٣٠٤، والجلابيب: الغرباء، ويروى الخلابيس وهم: الأخلاط، وبيضة البلد، أي أنه ذليل ليس معه غيره.

(٢) اسيناك: سويناك بأنفسنا.

(٣) اللعاعة: بقلة خضراء ناعمة، شبه بها زهرة الدنيا ونعيمها.

امـرأ من الأنصار، ولو سلك الناس شعبـاً[1] وسلكت الأنصار شعبـاً، لسلكت شعب الأنصار، اللهمّ ارحم الأنصار وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار، قال: فبكى القوم حتى أَخْضَلُوا لحاهم، وقالوا: رضينا برسول الله قَسْماً وحظّاً. ثم انصرف رسول الله ﷺ، وتفرّقوا)[2]، وقال حسان في هذه المناسبة معاتباً[3]:

زادت همومٌ، فماءُ العينِ منحدرُ ... سَحّاً إذا حَفَلَتْه عَبْرَةٌ دِرَرُ[4]

وجْداً بشمّاء، إذ شمّاءُ بَهْكَنَةٌ ... هيفاءُ، لا دنَسٌ فيها ولا خَوَر[5]

دع عنك شَمّاءَ إذ كانت مودّتُها ... نزراً، وشرُّ وصال الواصل النّزِرُ

وأتِ الرسولَ، فقل: يا خيرَ مؤتَمنٍ ... للمؤمنين إذا ما عُدِّل البشَرُ[6]

علامَ تُدعَى سُليمٌ وهي نازحةٌ ... قُدّامَ قومٍ همُ آوَوْا، وهم نصروا

سمّاهمُ الله أنصاراً بنصرِهمُ ... دينَ الهدى وعوانُ الحرب تستعِرُ[7]

وجاهَدوا في سبيل الله، واعْتَرَفوا ... للنائباتِ، وما خاموا وما ضجروا[8]

والناسُ إلْبٌ علينا فيك ليس لنا ... إلا السيوفَ وأطرافَ القنا: وزَرُ[9]

نجالدُ الناس، لا نُبقي على أحدٍ ... ولا نُضيّع ما توحي به السُّور

ولا تهرُّ جُناةُ الحربِ نادِينا ... ونحن حين تلظّى نارُها، سُعُر[10]

وكم رَدَدْنا ببدرٍ دونَ ما طَلَبوا ... أهلَ النفاقِ وفينا أُنزِل الظَّفَرُ

ونحن جندُك يوم النَّعْفِ من أُحُدٍ ... إذ حَزَّبَتْ بطراً أحزابَها مُضَرُ[11]

---

(١) الشعب: الطريق بين جبلين.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٢: ٤٩٨ - ٥٠٠.

(٣) المرجع السابق ٢: ٤٩٧ والديوان ص ١١٢.

(٤) السح: الصب، وحفلته: جمعته، ودرر: دارّة سائلة.

(٥) الوجد: الحزن. شماء: اسم امرأة. بهكنة: كثيرة اللحم. هيفاء: ضامرة الخصر.

(٦) عدّل: سوّي.

(٧) الحرب العوان: هي التي قوتل فيها مرة بعد مرة.

(٨) اعترفوا: صبروا. خاموا: جبنوا.

(٩) إلب: مجتمعون.

(١٠) لا تهرّ: لا تكره، جناة الحرب: الذين يخوضون غمارها، سعر: نوقد الحرب ونشعلها.

(١١) النّعف: أسفل الجبل، حزّبت: جمعت.

فما ونينا، وما خِمْنا وما خَبَرُوا منا عثاراً، وكلّ الناس قد عثروا

ولما تخلف كعب بن مالك عن غزوة تبوك. وأمر الرسول بمقاطعته ثم تاب الله عليه أسرع إليه الناس يبشرونه ويهنئونه، فلم يكن بينهم من المهاجرين سوى طلحة بن عبيد الله، وفي السقيفة طمع في الخلافة كل من المهاجرين والأنصار، وصاح معتدلوهم: منا أمير ومنكم أمير.

ولكن لا نريد أن يُفهم من إيراد هذه الحوادث أن تصدعاً قائم في جبهة المسلمين فقد كان الرسول يعالج تلك الشروخ بحكمته وفطنته، فلا تلبث أن تلتئم وتعود الحياة بينهم سيرتها الأولى من التآلف والاجتماع على نصرة دين الله، ولم يعرف أنها كانت ولو مرة واحدة سبباً في هزيمة أو خذلان.

٢ ـ الوثنيون:

سبق أن أشرنا[١] إلى أن الأوس والخزرج كانوا يعبدون مناة ويدينون لها بالطاعة وأن بيت مناة لم يكن مقاماً في المدينة وإنما كان بالمشلّل، وهو أقرب إلى مكة منه إلى المدينة، وأنهم كانوا في المدينة يتخذون لمناة رموزاً من الخشب، تكون في بيوتهم، ولكن وثنيتهم لم تكن مع ذلك بالوثنية المتغلغلة التي لا تقبل التغيير، ولم تكن مرتبطة بمصالح اقتصادية أو متصلة بوجاهة أو مركز، كما هو الحال في مكة، وفي الوقت نفسه كان اليهود يعيشون بين ظهرانيهم، وهم أهل كتاب ونبوّة، كانوا يسمعونهم يتحدثون عن النبوة والأنبياء، ويتلون صحف التوراة ويفسِّرونها، بل كانوا يتوعدونهم بظهور النبي العربي الذي بشَّرت به التوراة، ويقولون لهم: إنه سيبعث نبي في آخر الزمان نقتلكم معه قتل عاد وإرم[٢]، ولذلك قال الأنصار لبعضهم يوم العقبة الأولى حين عرض عليهم الرسول ﷺ الإسلام: (يا قوم تعلمون والله إنه

---

(١) انظر الكتاب الثالث من هذه السلسلة.

(٢) تفسير ابن كثير ١ : ٢١٧.

النبي الذي توعدكم به اليهود، فلا يسبقُنّكم إليه)[1]، وسارعوا إلى الإسلام فكانت بيعة العقبة الأولى فالثانية، ثم كانت الهجرة، فكان في استقبال الرسول ﷺ منهم زهاء خمسمائة في قباء، وازدحم آخرون في الطرق وعلى البيوت، ويقول البراء بن عازب ـ وكان حديث السن ـ: قدم النبي ﷺ، فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم برسول الله ﷺ، حتى جعل الإماء يقلن: قدم رسول الله ﷺ[2]. وكانت البنات ينشدن[3]:

طلع البدر علينا ... مِن ثنيّاتِ الوداع
وجب الشكرُ علينا ... ما دعا لله داع
أيُّها المبعوثُ فينا ... جئتَ بالأمر المُطاع

ومما يدل على اعتزازهم بهجرته إليهم واستبشارهم به، ما ينسب إلى الشاعر النجّاري أبي قيس بن صِرمة بن أبي أنس، يصف كرامة الله إياهم بالإسلام ونزول النبي ﷺ عليهم[4]:

ثَوَى في قريش بضعَ عشرةَ حِجَّةً ... يذكِّر لو يَلقَى صديقاً مُواتيا
ويَعرض في أهل المواسم نفْسَه ... فلم يَرَ من يُؤوي، ولم يَرَ داعيا
فلمّا أتانا أظهر اللَّهُ دينَه ... فأصبح مسروراً بطيبةَ راضيا
وألفى صديقاً، واطمأنت به النوى ... وكان له عوناً من الله باديا
يقصُّ لنا ما قال نوحُ لقومه ... وما قال موسى إذ أجابِ المناديا
وأصبح لا يخشى من الناسِ واحداً ... قريباً، ولا يخشى من الناس نائيا
بذلنا له الأموالَ من جلِّ مالنا ... وأنفسنا عند الوغى والتآسيا
نعادي الذي عادى من الناس كلهم ... جميعاً، وإن كان الحبيب المواتيا

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١: ٤٢٨.
(٢) الجامع الصحيح للبخاري باب (مقدم النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة).
(٣) رواه البيهقي بسنده عن ابن عباس وعائشة.
(٤) الطبري ٢: ٣٨٥، ومثله في الاستيعاب في ترجمة أبي قيس صرمة، وقد يلاحظ عليها بعض سمات الوضع، غير أن شعر أبي قيس هذا في عمومه ظاهر اللين.

ونعلم أن الله لا شيء غيره ونعلم أن الله أفضلُ هاديا

وليس معنى هذا أن جميع الأوس والخزرج دخلوا في الإسلام، ونبذوا ما كانوا عليه من شرك إلى دين التوحيد بين عشية وضحاها، أو حتى بعد هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة، فذلك ما لا يكون متوقعاً ولا معقولاً من قوم ألفوا الحياة الوثنية، ونشؤوا على دين موروث عن الآباء والأجداد، ولكن الذي لا شك فيه أن الذين دخلُوا في هذا الدين الجديد وأنعم الله عليهم باتّباعه، هم من الكثرة بحيث استطاعوا أن يحسنوا استقبال الرسول وأصحابه، ويفرضوا الوجود الإسلامي في المدينة، ويعلنوا متابعتهم ومؤازرتهم له دون خشية أو عناء، ومع ذلك فقد بقي في المدينة مشركون لم يدخلوا فيما دخل فيه الناس، أسلم بعضهم بعد ذلك عن تفهم واقتناع، وناوأ بعضهم الدعوة وظل معادياً لها إلى أن مات، وفرّ أبو عامر الراهب إلى مكة وحضر معركة أحد مع قريش، ثم ارتحل إلى بلاد الروم وتنصر وبقي فيها إلى أن مات. ولجأ عدد منهم إلى أسلوب آخر من المقاومة الخفية الماكرة فأبطن الكفر وأظهر الإسلام وهم الفئة التي عرفت بالمنافقين.

وحين مات الرسول ﷺ كان الشرك قد اختفى من المدينة ولم يبق بين أهلها مشركون، فقد حرص ﷺ أن يطهِّر مكة والمدينة من رجسهم: ﴿ إنَّما المشركُونَ نَجَسٌ فَلاَ يَقْرَبوا المسجدَ الحرامَ بعدَ عامِهِمْ هَذا، وإنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فسوفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾[1]، وحرص ﷺ أن يكون هذان البلدان المقدسان محضين خالصين للمسلمين.

٣ ـ المنافقون:

لم يعان المجتمع المدني الجديد من الشرك والمشركين داخل المدينة، وإنما كان كل عنائه من المنافقين والنفاق، وهو لون من السلوك لم يكن للبيئة العربية به عهد، ولا واجهته الدعوة الإسلامية في مكة، فلم يكن في مكة

---

(١) سورة التوبة، آية: ٢٨.

نفاق[1]، لأن المسلمين كانوا هناك قلة مغلوبة على أمرها، لا تملك حولاً ولا طولاً، وكان الدخول في الإسلام لا يجلب لأحد منفعة ولا يدفع عنه ضراً، بل كان على العكس تماماً يعرضه للخطر، ويجعله هدفاً للسهام، ومن ثم فإنه لم يقبل على الإسلام إلا من قوي عزمه وصدق إيمانه، وجازف بحياته ومستقبله. فالمشركون هم الأقوياء المالكون لزمام الأمور في مكة، يضربون المؤمنين وينكِّلون بالضعفاء منهم، ويعزلون بني هاشم وبني عبد المطلب في الشِّعب، وقد صور هذا الموقف القرآن الكريم، فقال: ﴿وَاذْكُروا إذْ أنتُمْ قليلٌ مُسْتَضْعَفُونَ في الأرضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ﴾[2]، ولكن الوضع كان مختلفاً تماماً في المدينة، فالإسلام أخذ ينتشر فيها حثيثاً ويعلو شأن أتباعه يوماً بعد يوم، وأشياعه هم الكثرة الغالبة، والقوة في جانبهم، فمن لم يدخل فيه أضاع كثيراً من مصالحه، ومن هنا نجم النفاق ورفع رأسه، وبدأت من خلاله الحرب الخفيّة ضد المسلمين، تشن من قِبَل أناس بلغ عددهم في غزوة أحد - مثلاً - ثلاثمائة رجل، تخلّوْا عن المدينة وعن جماعتها المسلمة في أحلك الظروف وأشدّ الأزمات، بعد أن تظاهروا بالخروج إلى القتال ولبسوا أسلحتهم وتوجهوا مع الناس إلى أرض المعركة، فقد استطاع كبيرهم عبد الله بن أبيّ بن سلول أن يقتطعهم من جيش المسلمين ويعود بهم إلى المدينة، وقد أراد بذلك أن يوجه طعنة من الخلف إلى الجيش المسلم، ويصدّع جبهته من الداخل، فلا يقوى على مواجهة الجيش المهاجم.

وكان ظهور النفاق في المدينة أمراً طبيعياً لحالة نفسية لا بدّ منها في هذه البيئة التي غلب عليها الإسلام، فإنما تظهر بادرة النفاق دائماً في بيئة تجمع بين دعوتين متنافستين وقيادتين متقابلتين، في مثل هذه الظروف توجد فئة من الناس مضطربة متأرجحة بين هاتين الدعوتين، مترددة في إيثار إحداهما على الأخرى، فقد تنحاز إلى إحدى الدعوتين وتكون في معسكرها وتعطيها كل

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١: ٥٠١.
(٢) سورة الأنفال، آية: ٢٦.

ولائها وحبها العاطفي، إلّا أن مصالحها المادية وانتصار الدعوة المقابلة وانتشارها، لا يسمح لهذه الفئة أن تعلن عن موقفها وتنضوي إلى الدعوة الأولى، أو تقطع العلاقة التي تربطها ببيئتها السابقة، وقد صوّر القرآن هذا الموقف المضطرب تصويراً دقيقاً، فقال: ﴿ ومِنَ الناسِ مَنْ يَعبدُ اللَّهَ على حَرْفٍ فإنْ أصابَهُ خيرٌ اطمأنَّ بِهِ، وإنْ أصابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ على وَجْهِهِ، خَسِرَ الدُّنيا والآخِرَةَ، ذلكَ هُوَ الخُسْرانُ المُبينُ ﴾[١]، ووصف أيضاً هؤلاء المنافقين بقوله: ﴿ مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذلِكَ لا إلى هؤلاءِ ولا إلى هؤلاءِ ﴾[٢]، وعبّر القرآن أيضاً عن وجود النفاق في المدينة وما حولها بقوله: ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ من الأعرابِ مُنافِقُونَ وَمِنْ أهْلِ المدينةِ مَرَدُوا على النفاقِ لا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعلمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدّونَ إلى عَذابٍ عظيمٍ ﴾[٣].

وكان شأن هؤلاء المنافقين في أول الأمر خافياً لا يعلمه أحد، وجاملهم الرسول ﷺ كثيراً، ولكن الله بعد ذلك أطلعه عليهم فكان يعرفهم بأعيانهم فلا يعوِّل عليهم في شأن من شؤون المسلمين، ولكن أمرهم ظل مخفيّاً على أصحابه، ولذلك شاع بينهم الرمي بالنفاق عند أقل بادرة، وقد سارّ الرسول ﷺ بأسماء المنافقين حذيفة بن اليمان في غزوة تبوك ولكنه حافظ على سرّ رسول الله ولم يبح به لأحد. وحين سأله عمر في خلافته هل تعرف منهم أحداً من ولاتي، قال: يوجد منهم واحد فقط، ولكنه أبى أن يفشي ما اؤتمن عليه.

ومن المؤكد أن وجودهم استمر إلى ما بعد عهد النبوة، ففي غزوة تبوك التي حدثت في السنة التاسعة للهجرة قال رسول الله ﷺ[٤] ذات يوم وهو في جهازه لتبوك، للجَدّ بن قيس أحد بني سلمة: «يا جَدّ، هل لك العام في

(١) سورة الحج، آية: ١١.
(٢) سورة النساء، آية: ١٤٣.
(٣) سورة التوبة، آية: ١٠١.
(٤) السيرة النبوية لابن هشام ٢: ٥١٦.

جِلاد بني الأصفر؟» وكان الجد هذا من أشجع أهل المدينة ـ فقال: (يا رسول الله، أوَ تأذن لي ولا تفتنّي؟ فوالله لقد عرف قومي أنه ما من رجل بأشد عُجْباً بالنساء مني، وإني أخشى إن رأيتُ نساء بني الأصفر أن لا أصبر). فأعرض عنه رسول الله ﷺ، وقال: «قد أذنت لك» وفيه نزل قوله تعالى: ﴿ومنهم مَنْ يقولُ: ائْذَنْ لي ولا تَفْتِنِّي ألا في الفتنةِ سَقَطوا، وإنَّ جهنمَ لَمحيطةٌ بالكافرينَ﴾[1].

وبلغ رسول الله ﷺ أن ناساً من المنافقين يجتمعون في بيت سويلم اليهودي ـ وكان بيته عند جاسوم[2] ـ يثبِّطون الناس عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، فبعث إليهم النبي ﷺ طلحةَ بن عبيد الله في نفرَ من أصحابه، وأمره أن يحرِّق عليهم بيت سويلم، ففعل طلحة، فاقتحم الضحاكُ بن خليفة من ظهر البيت، فانكسرت رجله، واقتحم أصحابُه، فأفلتوا، فقال الضحاك في ذلك:

كـادت وبيـتِ الله نـارُ محمـدٍ يَشيط بها الضّحاكُ وابن أُبَيْـرِق[3]
وظَلْتُ وقـد طبّقْتُ كِبْسَ سـويلمٍ أنوء على رجـلي كسيراً ومِـرفَقي[4]
سـلامٌ عليكـم لا أعـود لمثلهـا أخاف ومن تَشْمَلْ بـه النارُ يُحْـرَق

والملاحظ أن النفاق لم يكن في الأوس والخزرج وحدهم بل كان أيضاً من اليهود منافقون، كسويلم اليهودي السابق، ومن الأعراب خارج المدينة منافقون، يأتون إلى المدينة فيعلنون إسلامهم لغرض في نفوسهم، حتى إذا قضوا وطرهم، ارتدوا عن دينهم وفروا إلى ذويهم هاربين، وذلك كما فعل مقيس بن صبابة[5] الكناني، فقد كان له أخ يدعى هاشم بن صبابة، أسلم

(١) سورة التوبة، آية: ٤٩.

(٢) جاسوم: اسم موضع بالمدينة.

(٣) يشيط: يحترق، وابن أبيرق: هو بشير بن الأبيرق المنافق من بني ظفر الأوسيين، وكان شاعراً يهجو بشعره الصحابة.

(٤) طبقت: علوت، والكِبس: ـ بكسر الكاف ـ: البيت الصغير.

(٥) فتوح البلدان ٥٣ ـ ٥٤.

وحسَّن إسلامه وشهد غزوة المُريسيع مع رسول الله ﷺ، فقتله رجل من الأنصار خطأ، وهو يظنه مشركاً، فقدم مقيس على رسول الله ﷺ، فقضى له بالدية على عاقلة القاتل، فأخذها، ولكن ذلك لم يشف نفسه من قاتل أخيه، فاتخذ من الإسلام ستاراً، وعاش زمناً في المدينة يبطن الكفر ويعلن الإسلام، ثم عدا على قاتل أخيه فقتله وهرب مرتداً وقال:

شَفَى النفس أن قد بات بالقاع مسنداً ... يضــرِّجُ ثـوبيـه دمـاءُ الأخَـادعِ
ثـأرتُ بــه قهـراً، وحمّلتُ عقْلَهُ ... ســراةَ بني النجّار أربـاب فـارع
شفيت بـه وتري، وأدركت ثـورتي ... وكنت عن الإســلام أول راجــع

وكان ممن أهدر الرسول دمهم في فتح مكة فقتله غيلةً بن عبد الله الكناني.

وممن ذكرت كتب السيرة من المنافقين حاطب بن أمية بن رافع الذي استشهد ولده في أحد، فإنه حين سمع المسلمين يقولون: أبشر يا ابن حاطب بالجنة، قال لهم: بأي شيء تبشّرونه؟ بجنة من حرمل؟ غررتم والله هذا الغلام من نفسه[1].

ومنهم قزمان، وكان كلما ذُكر لرسول الله ﷺ قال: إنه لمن أهل النار، فلما كان يوم أحد قاتل قزمان قتالاً شديداً في صفوف المسلمين، وقتل وحده ثمانية أو سبعة من المشركين، ثم سقط جريحاً. فاحتُمل إلى دار بني ظفر وقال له المسلمون: أبشر، قال: بماذا أبشر، فوالله إن قاتلتُ إلاّ عن أحساب قومي ولولا ذلك ما قاتلت، قال: فلما اشتدت عليه جراحته أخذ سهماً من كنانته فقتل به نفسه[2].

وكان رأس المنافقين جميعاً عبد الله بن أبيّ بن سلول، وسبب ذلك أن أهل يثرب كانوا سيولونه عليهم بعد حرب بُعاث، فلما جاء الإسلام حرمه

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢ : ٨٨.

(٢) المرجع السابق.

ذلك الملك الذي كان يتطلع إليه، قال ابن هشام[1]: (قدم الرسول ﷺ المدينة وسيد أهلها عبد الله بن أبيّ بن سلول... لم تجتمع الأوس والخزرج قبله ولا بعده على رجل غيره من أحد الفريقين، حتى جاء الإسلام، وكان قومه قد نظموا له الخرز ليتوّجوه، ثم يملّكوه عليهم، فجاءهم الله تعالى برسوله ﷺ، وهم على ذلك، فلما انصرف قومه عنه إلى الإسلام، ضَغن، ورأى أن رسول الله ﷺ قد استلبه ملكاً، فلما رأى قومه قد أبَواْ إلّا الإسلام دخل فيه كارهاً، مصرّاً على نفاق وضغن).

وكان المنافقون في الحقيقة عنصراً هداماً في جسم المجتمع الإسلامي الجديد بالمدينة، عانى منه المسلمون الأمرّين، والذي يقرأ القرآن يجد كثيراً من الآيات التي تتحدث عن المنافقين أو توجه إليهم خطاب التأنيب والوعيد، بل إننا نجد سورة بكاملها تحمل اسم: (المنافقون). على أن كل ما جاء من القرآن حول المنافقين هو من القرآن المدني، لأن العهد المكي لم يعرف النفاق ولم يكن في مكة منافقون كما قلنا.

وقد عادى الإسلام هذه الفئة من الناس ونبّه إلى خطرهم وحذر الناس منهم، فامتلأت قلوبهم غيظاً وحسداً، وعمدوا إلى الكيد والمراوغة والخديعة، يتربصون بالمسلمين الدوائر، عليهم دائرة السَّوء وغضب الله عليهم ولعنهم، وبذلك كونوا داخل المجتمع المدني جبهة داخلية معادية كانت أشد خطراً على الإسلام والمسلمين من الأعداء المجاهرين، ولولا نصرة الله لرسوله وتثبيته لأوليائه لانطفأت جذوة الحق وعاد الناس بسبب هذه الشرذمة الدنيئة المنافقة إلى جاهليتهم الأولى وعاشوا في متاهات الضلال.

٤ ـ اليهود:

لم يكن اليهود على وفاق مع الأوس والخزرج في الجاهلية ولكنهم اضطروا إلى المصانعة والمواربة بعد أن أحسّوا بالعجز عن المواجهة وسلكوا

---

(١) المرجع السابق ١: ٥٨٤ . ٥٨٥.

طريق الوقيعة بين الحيين، وأدرك العرب منهم ذلك فلقبوهم بالثعالب[1]، ولقد كانوا معهم على طرفي نقيض من جميع الوجوه، وبالنسبة للناحية الدينية - كما نعلم - كان عرب يثرب وثنيين بينما كان اليهود كتابيين، وكانوا يتوعدون العرب بظهور النبي - كما أشرنا - فلما جاء كفروا به، ويلخص القرآن هذا الموقف بقوله: ﴿ وَلَمَّا جاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ على الذِينَ كَفَرُوا، فلمّا جاءَهُمْ ما عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ، فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الكَافِرِينَ ﴾[2]. ونحن نعلم أن اليهودية قبل مبعث الرسول ﷺ قد بعدت كثيراً عن عقيدة التوحيد التي جاء بها موسى عليه السلام، وتحوّلت إلى مجموعة طقوس وتقاليد لا روح فيها ولا حياة، وأن اليهود تأثروا كثيراً بوثنية الأمم التي جاوروها أو وقعوا تحت سيطرتها، فقد جاء في دائرة المعارف اليهودية: (إن سخط الأنبياء وغضبهم على عبادة الأوثان تدل على أن عبادة الأوثان والآلهة، كانت قد تسربت إلى نفوس الإسرائيليين)[3].

واتخذ اليهود في يثرب في أول الأمر موقفاً حيادياً من المسلمين والمشركين من أهل مكة والمدينة، ولعلهم كانوا أميل إلى المسلمين، بحكم أنهم يلتقون معهم في الإيمان بالنبوّات، والإيمان بالبعث، والدعوة إلى التوحيد، برغم ما علق بشرائعهم من تحريف وغلوّ في تقديس بعض أنبيائهم، ونظروا إلى الإسلام من جهة أخرى على أنه وسيلة لتفريق وحدة العرب وكسر حدة الأوس والخزرج، على أساس أن عدوّ عدوِّك صديقك، وكان المتوقع أن يستمروا على هذا الحياد، وبخاصة أن الإسلام دعا إلى الإيمان بجميع أنبياء بني إسرائيل وأعلن القرآن ذلك في مثل قوله: ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بما أُنْزِلَ إليهِ مِنْ رَبِّهِ والمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ باللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ، لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ﴾[4]، ولو فعلوا ذلك لكفَوْا المسلمين صراعاً طاحناً ما كانوا يرغبون

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١: ٥٥٥ والندوي ص ١٣٩.

(٢) سورة البقرة، آية: ٨٩.

(٣) الندوي ص ٢.

(٤) سورة البقرة، آية: ٢٨٥.

فيه، ولكفوهم مؤونة اصطدامات لا تتلاءم مع ما كانوا عليه من ضعف في طور النشأة والتكوين ولعاش الجميع في أمن وسلام واستقرار، فما الــذي يا ترى سبب الاصطدام العنيف الذي انفجر بين الفريقين وسدّ كل سبيل للتفاهم والتعايش؟.

ويجيب ابن هشام عن هذا السؤال فيقول: (وكانت أحبار يهود هم الذين يسألون رسول الله ﷺ ويتعنتـونه، ويـأتونـه باللبس، ليلبسـوا الحق بالباطل، فكان القرآن ينزل فيهم فيما يسألون عنه)[١]، حتى إن ذلك شغل جزءاً كبيراً من القرآن ولم يكن ينزل في تلك الفترة مما ليس له صلة بذلك (إلا قليلٌ من المسائل في الحلال والحرام كان المسلمون يسألون عنها)[٢]، ومعنى هذا أنهم فتحوا باب التحرش بالإسلام والمسلمين وواجهوا صاحب الرسالة نفسه بالكفر والعناد، (بغياً وحسداً وضغناً، لما خصّ الله تعالى به العَرَب من أخذه رسوله منهم)[٣].

أما الكاتب اليهودي إسرائيل ولفنسون فإنه يجيب على هذا السؤال بقوله: (ولو وقفت تعاليم الرسول عند حد محاربته للديانة الوثنية فحسب، ولم يكلف اليهود أن يعترفوا برسالته، لما وقع نزاع بين اليهود والمسلمين، ولكان اليهود قد نظروا بعين ملـؤها التبجيل والاحترام لتعاليم الرسول، ولأيدوه وساعدوه بأموالهم وأنفسهم، حتى يحطم الأصنام ويقضي على العقائد الوثنية، لكن بشرط ألا يتعرض لهم ولا لدينهم وبشرط ألا يكلفهم الاعتراف بالرسالة الجديدة، لأن العقلية اليهودية لا تلين أمام شيء يزحزحها عن دينها، وتأبى أن تعترف بأن يوجد نبي من غير بني إسرائيل)[٤].

وكأن ولنفسون يحمل الرسول ﷺ مسؤولية الموقف وينحو باللائمة على

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١: ٥١٣.

(٢) المرجع السابق.

(٣) المرجع السابق.

(٤) تاريخ اليهود في بلاد العرب لولفنسون ص ١٢٣.

المسلمين في كل ما حدث بينهم وبين قومه اليهود، وهو أمر عجيب يدل على محاولته تجاهل أهم أساس تقوم عليه الدعوة الإسلامية، وهو أنها ليست دعوة قاصرة على العرب أو خاصة بهم، وإنما هي إلى الناس كافة ومنهم اليهود، فكان لا بدّ أن يدعوهم الرسول ﷺ إلى الإسلام ولكن دون إكراه، ولعل من المناسب أن نذكر أن قوله تعالى: ﴿ لا إكراهَ في الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَيِّ ﴾[1]، نزل في مناسبة يهودية، روى أبو داود السجستاني بسنده عن ابن عباس قال: (كانت المرأة تكون مِقْلاة، فتجعل على نفسها إن عاش لها ولد أن تهوِّده، فلما أجليت بنو النضير كان فيهم من أبناء الأنصار، فقالوا، لا ندع أبناءنا، فأنزل الله تعالى: ﴿ لا إكراهَ في الدينِ قد تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَيِّ ﴾[2]، ولو كان محمد ﷺ زعيماً ينشد سيادة أو رئاسة لأمسك عن مواجهة اليهود، ولو إلى حين، ولاتخذ من استرضائهم وسيلة للتغلب على المشركين، حتى إذا اشتد ساعد الإسلام وتأيّد، عمد إلى أعدائه جميعاً فضرب بعضهم ببعض، ولكنه لم يكن كذلك، بل كان الرسول المأمور بتبليغ الرسالة إلى الطوائف والأمم، وما كان له أن يكتم رسالة ربه أو ينكص عن التبليغ، والفرق شاسع وكبير بين الزعامة والنبوة، وبين الزعماء القوميين والأنبياء المرسلين.

أخذ القرآن ينزل على رسول الله ﷺ ينقد ما كان عليه اليهود من عقائد باطلة ويذكرهم بماضيهم الحافل بالأوزار وبمحاربة الأنبياء، ويضرب للمشركين الأمثال بهم وبمفاسدهم: ﴿ لُعِنَ الذينَ كَفَرُوا مِنْ بَني إسْرَائِيلَ عَلَى لسانِ داودَ وَعِيسى ابنِ مريمَ. ذلكَ بما عَصَوا وكانوا يَعْتَدونَ، كانوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلوهُ لَبِئْسَ ما كانوا يَفْعَلونَ ﴾[3]. وينعي عليهم أكلهم للربا وقد نهوا عنه، وأكلهم أموال الناس بالباطل، وتحريفهم للتوراة، وعدوانهم في السبت، واتخاذهم العجل، وحبهم للمادة، وحرصهم على

(١) سورة البقرة، آية: ٢٥٦.

(٢) سنن أبي داود ـ كتاب الجهاد (باب في الأسير يكره على الإسلام).

(٣) سورة المائدة، آية: ٧٨.

الحياة، قال تعالى: ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أحرصَ الناسِ عَلَى حياةٍ ﴾[1] وغير ذلك من المفاسد والعيوب والشوائن.

إزاء هذا ثار اليهود وناصبوا المسلمين العداء السافر والخفي، وبدأ الصراع بين الفريقين كأشد ما يكون الصراع، وزاد البلة طيناً إسلامُ بعض أحبارهم وعلمائهم ممّن هداهم الله، كعبد الله بن سلام وعدد آخر منهم أوْصلَهُ بعضهم إلى تسعة وثلاثين[2].

ولم يقتصر اليهود بما عرفوا عليه من حسد وسوء في الطباع، على معاداة الإسلام ومخالفته، بل تعداه ذلك إلى تفضيل المشركين على المسلمين ومناصرتهم والاتفاق معهم على تبييت الشر وتدبير المكائد، وفي لقاء لعلمائهم مع قريش سألوهم: (يا معشر يهود، إنكم أهل الكتاب الأول والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد، أفديننا خير أم دينه؟ قالوا: بل دينكم خير من دينه، وأنتم أولى بالحق)[3]، وهو موقف غريب لا يتفق مع ما يدّعونه من توحيد، وإن اتفق مع ضمائرهم الفاسدة وخلقهم الوضيع.

ومن الغريب أن ينكر ولفنسون هذا التصرف على بني قومه ويلومهم عليه، وذلك حين قال: (ولكن الذي يُلامون عليه بحق، والذي يؤلم كل مؤمن بإلّه واحد من اليهود والمسلمين على السواء، إنما هو تلك الحادثة التي جرت بين نفر من اليهود وبين بني قريش الوثنيين، حيث فضل هؤلاء النفر من اليهود أديانَ قريش على دين صاحب الرسالة الإسلامية)، إلى أن قال: (ثم إن ضرورات الحروب أباحت للأمم استعمال الحيل والأكاذيب، والتوسل بالخدع والأضاليل للتغلب على العدو، ولكن مع هذا كان من واجب هؤلاء اليهود ألا يتورّطوا في مثل هذا الخطأ الفاحش، وألا يصرحوا أمام زعماء قريش، بأن عبادة الأصنام أفضل من التوحيد الإسلامي، ولو أدّى بهم الأمر

---

(١) سورة البقرة، آية: ٩٦.

(٢) الندوي ص ١٦١ تعليق (١).

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ٢: ٢١٤.

إلى عدم إجابة مطلبهم، لأن بني إسرائيل الذين كانوا مدة قرون حاملي راية التوحيد، في العالم بين الأمم الوثنية باسم الآباء الأقدمين، والذين نكبوا بنكبات لا تحصى من تقتيل واضطهاد بسبب إيمانهم بإله واحد في عصور شتى من الأدوار التاريخية، كان من واجبهم أن يضحوا بحياتهم وكل عزيز لديهم في سبيل أن يخذلوا المشركين)[1].

وقد أشار القرآن إلى موقفهم هذا بقوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بالجِبْت والطاغُوتِ، وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا، هَؤُلاءِ أَهْدَى من الَّذِينَ آمَنوا سَبيلاً ﴾[2]. وقرن القرآن عداوة اليهود بعداوة المشركين ووضعهما في ميزان واحد بالنسبة للمسلمين، وذلك حين قال: ﴿ لَتجِدَنَّ أَشَدَّ الناسِ عداوةً للذِينَ آمَنوا اليهودَ والذينَ أشْرَكُوا ﴾[3].

وقد كان الرسول ﷺ عقد عهد موادعة بينه وبين اليهود حين مقدمه المدينة، ولكن بني قينقاع أخلّوا بشروط تلك المعاهدة، وحاربوا فيما بين بدر وأحد، وكان من حديثهم أن جَمَعهم بالسوق المعروفة باسمهم (سوق بني قينقاع) ثم قال: (يا معشر يهود، احذروا من الله مثل ما نزل بقريش من النقمة ـ يعني ما حلّ بقريش في بدر ـ وأسلِمُوا، فإنكم قد عرفتم أنّي نبي مرسَل، تجدون ذلك في كتابكم وعهد الله إليكم قالوا: يـا محمد، إنك ترى أنا قـومك!. لا يغرّنك أنك لقيتَ قوماً لا علم لهم بالحرب، فأصبت منهم فرصة، إنا والله لئن حاربناك لتعلمنّ أنّا نحن الناس)[4]، وحدث منهم بعد ذلك ما حـدث من الاعتداء عـلى إحدى النسـاء المسلمات، فحـاصرهم الرسول ﷺ خمس عشرة ليلة حتى نزلوا على حكمه.

وفي سنـة أربع للهجرة حاول بنو النضير قتل الرسول ﷺ فحاصرهم

---

(١) اليهود في بلاد العرب ص ١٤٢.

(٢) سورة النساء، آية: ٥١.

(٣) سورة المائدة: آية ٨٢.

(٤) السيرة النبوية لابن هشام ٢: ٤٧

ثم أجلاهم عن المدينة فارتحلوا إلى خيبر، واشترك بنو قريظة في التآمر على المسلمين في موقعة الخندق فاستحقوا بذلك العقاب جزاء غدرهم وخيانتهم وقُتِّلوا تقتيلاً، وبذلك طُهِّرت المدينة نهائياً من رجس اليهود إلى غير رجعة، ثم كانت غزوة خيبر، وفي عهد عمر تم إجلاؤهم الكلّي عن جزيرة العرب، فلا يجتمع دينان في جزيرة العرب.

ولم يكن موضوع الإجلاء بدعة في يثرب فقد كان في الجاهلية عرفاً سائداً بين أهلها وحلاً يلجؤون إليه في بعض الحالات دون استنكار يذكر، وذلك كإجلاء بني عبد الأشهل لأبناء عمومتهم بني حارثة إلى خيبر، وكما كان سيحصل لبني قينقاع من يهود بني قريظة والنضير.

ومع هذا كله فإن بعض اليهود هداهم الله إلى الإسلام، وكان منهم مسلمون سابقون مثل حبر بني قينقاع: عبد الله بن سلام، وغيره، وحملوا سيوفهم يقاتلون في سبيل الله وكان بعضهم من النساء، حكى أبو الفرج[1]: (أن أوس بن ذبًّ القرظي كانت له امرأة من بني قريظة، فأسلمت وفارقته، ثم نازعتها نفسها إليه، فأتته وجعلت ترغبه في الإسلام فقال فيها:

دعتني إلى الإسلام يوم لَقيتُها   فقلتُ لها: لا بلْ تعالَيْ تهوَّدي

فنحن على توراة موسى ودينه   ونعم لعمري الدينُ دينُ محمدِ

كلانا يرى أن الرَّشادة دينُه   ومن يُهْدَ أبوابَ المراشدِ يَرشُدِ)

* * *

هذه هي البنية الدينيّة للمجتمع الجديد في المدينة والصراع الذي قام بين وحداتها وما انقضى عهد النبوة حتى تحولت المدينة إلى وحدة دينية واحدة شعارها: لا إله إلاّ الله محمد رسول الله، ولم يبق فيها من غير المسلمين أحد، غير ما يكون من بعض الجواري العبيد كأبي لؤلؤة المجوسي قاتل أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه. أو ما كان من بعض المنافقين المتسترين.

* * *

(١) الأغاني ٢٢: ١٠٦ ثقافة.

جـ - البنية الاجتماعية

كانت البنية الاجتماعية في الجانب المسلم على عهد رسول الله ﷺ ثم في المدينة كلها على عهد الخلفاء الراشدين وبعد غلبة الإسلام عليها: في غاية من التماسك والترابط، الذي لم تعرف له الدنيا مثيلاً، فقد عاش المسلمون إخوة فيما بينهم وقوة قاهرة على من عاداهم، وخير ما يصور ذلك قوله تعالى: ﴿ محمدٌ رسولُ اللّهِ والذينَ معهُ أشِدّاءُ على الكفارِ رُحَماءُ بَيْنَهُمْ تراهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبتغونَ فضلاً مِنَ اللّهِ وَرِضْواناً، سِيماهُمْ في وُجوهِهِمْ مِنْ أثَرِ السُّجودِ ﴾[1]، وقوله ﷺ: «المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشدُّ بعضه بعضاً»[2]، وقوله: «مثلُ المؤمنين في توادِّهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»[3]، فعلى مثل هذا التلاحم وهذا الارتباط المتين قام الإسلام وأرسى قواعده، فالوحدة الشاملة كانت من أهم أهدافه، وقيادة المؤمنين إلى حياة أفضل كانت من أوجب غاياته، تلك الحياة التي كانت لا تعيش على دمائها الماضيات وإنما تعيش على أمجادها المقبلات، وتتلخص بعض مظاهر هذا التوحيد فيما يلي:

١ - المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار:

كان من أهداف هذه المؤاخاة إقامة رابطة متينة من الأخوّة بين الفئتين الأساسيتين اللتينّ تشكّلان المجتمع الجديد في المدينة وهما فئتا المهاجرين والأنصار، توكيداً لوحدة المجتمع وشدّاً للبناته، ولم تخلُ هذه المؤاخاة من غاية نفسية أشار إليها السهيلي بالإضافة إلى الغرض الاجتماعي، قال السهيلي: (آخى رسول الله ﷺ بين أصحابه حين نزلوا المدينة ليذهب عنهم وحشة

---

(١) سورة الفتح، آية: ٢٩.

(٢) رواه الترمذي والنسائي.

(٣) رواه مسلم، وأحمد.

الغـربـة، ويؤنسهم من مفـارقـة الأهـل والعشيـرة، ويشـد أزر بعضهم ببعض)[١].

وكانت هذه المؤاخاة على الحق والمؤاساة، كما نصّت على التوارث بين المتآخين دون ذوي الأرحام[٢]، ويرى البعض[٣] أن نظام المؤاخاة أوجد صيغة سليمة في البناء الاجتماعي والروحي والاقتصادي بين فئات من مختلف القبائل جمع بينها الرابط الروحي وترك بينهم روح المودة والتعاون والتضحية لبناء دولة هم عمادها.

وفي الواقع إن عملية المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار لم تكن الأولى من نوعها بين المسلمين بل كانت قد سبقتها مرحلة أولى تمت فيها المؤاخاة بين المهاجرين أنفسهم، وقد خاطبهم الرسول قائلاً: «تآخَوْا في الله أخوين أخوين»[٤]، ثم أخذ بيد علي بن أبي طالب، فقال: «هذا أخي» فكان رسول الله ﷺ وعلي أخوين، وحمزة بن عبد المطلب وزيد بن حارثة أخوين، وإليه أوصى حمزةُ يوم أحد حين حضر القتال إن حدث به حادثُ الموت. وبلال وأبو رويحة عبد الله بن عبد الرحمن الخثعمي أخوين، ولمّا دوّن عمر بن الخطاب الدواوين بالشام، وكان بلال يقيم فيها مجاهداً، قال له: إلى من تجعل ديوانك يا بلال؟ قال: مع أبي رويحة، لا أفارقه أبداً، للأخوّة التي كان رسول الله ﷺ عقد بينه وبيني. فضُمَّ إليه، وكذلك تمت المؤاخاة بين أبي بكر وعمر. وأما المتآخون من المهاجرين والأنصار فقد أوصلهم ابن سعد إلى مائة رجل وأوصلهم ابن هشام إلى تسعين[٥]، وهذا جدول لبعض من تمت المؤاخاة بينهم، يُلقي الضوء على بعض المهاجرين الأوائل، وفي الوقت نفسه يلقي الضوء على أبرز من سارعوا إلى الإسلام وتحمّل المسؤولية من الأنصار:

---

(١) الروض الأنف.

(٢) طبقات ابن سعد ١: ٢٣٨.

(٣) دراسة في السيرة ـ عماد الدين خليل ص ١٥٣ ـ دار النفائس بيروت.

(٤) السيرة النبوية لابن هشام ٢: ١٣٨، والبداية والنهاية لابن كثير ٣: ٢٢٦.

(٥) السيرة النبوية لابن هشام ١: ٥٠٥.

المهاجريّ	أخوه من الأنصار
١ ـ أبو بكر الصديق:	خارجة بن زهير الخزرجي، من بلحارث.
٢ ـ عمر بن الخطاب:	عتبان بن مالك الخزرجي، من بني سالم بن عوف.
٣ ـ أبو عبيدة بن عبد الله:	سعد بن مُعاذ بن النعمان الأوسي ـ من بني عبد الأشهل.
٤ ـ عبد الرحمن بن عوف:	سعد بن الربيع الخزرجي، من بلحارث.
٥ ـ الزبير بن العوام:	سلامة بن سلامة بن وقش الأوسي من بني عبد الأشهل.
٦ ـ عثمان بن عفان:	أوس بن ثابت بن المنذر الخزرجي ـ من بني النجار.
٧ ـ طلحة بن عبيد الله:	كعب بن مالك الخزرجي ـ من بني سلمة.
٨ ـ جعفر بن أبي طالب:	معاذ بن جبل الخزرجي ـ من بني سلمة. ـ
٩ ـ سعد بن زيد بن عمرو بن نفيل:	أبيّ بن كعب الخزرجي: من بني النجار.
١٠ ـ مصعب بن عمير بن هاشم:	أبو أيوب خالد بن زيد الخزرجي ـ من بني النجار.
١١ ـ أبو حذيفة بن عُتبة بن ربيعة:	عبّاد بن بشر بن وَقْش الأوسي ـ من بني عبد الأشهل.
١٢ ـ عمار بن ياسر، حليف بني مخزوم:	حذيفة بن اليمان العبسي ـ حليف بني عبد الأشهل.
١٣ ـ أبو ذر، جندب بن جُنادة الغفاري:	المنذر بن عمرو المعنق ليموت الخزرجي ـ من بني ساعدة.
١٤ ـ حاطب بن أبي بلتعة حليف بني أسد: ابن عبد العزّى	عويم بن ساعدة الأوسي ـ من بني عمرو بن عوف.

ويكشف الجدول السابق عن النسبة العددية بين الأوس والخزرج أو على الأقل نسبة إقبال الفريقين على الإسلام. ولا غرابة في ذلك فقد توقفت

بعض بطون الأوس بكاملها عن الإسلام، يقول ابن هشام: (فلم يبق دار من دور الأنصار إلا أسلم أهلها إلاّ ما كان من خَطْمة، وواقف، ووائل، وأميّة، وتلك أوس الله، وهم حيّ من الأوس، فإنهم أقاموا على شركهم)[1].

ويلاحظ أن عملية المؤاخاة تمت في السنة الأولى للهجرة، وقد حققت أهدافها كاملة، فقوّت من نفوس المهاجرين وآنستهم في غربتهم وخلقت بينهم وبين الأنصار جوّاً من التآلف والتلاحم على أساس من العقيدة والإيمان لا دخل للنسب فيه، وهو لون من الأخوّة لا عهد للجزيرة العربية بله المدينة به، ولا درجوا عليه، (وإن الرجل من الأنصار يقول لأخيه من المهاجرين: انظر شطر مالي فخذه وتحتي امرأتان فانظر أيهما أعجب إليك حتى أطلقها، ويقول المهاجري: بارك الله لك في أهلك ومالك، ودلني على السوق)[2]، فكان من الأنصار الكرم والإيثار، ومن المهاجرين التعفف وعزّة النفس.

وقد وصف القرآن الكريم حسن استقبال الأنصار لإخوانهم المهاجرين وحسن معاملتهم لهم وأنهم لا يجدون في أنفسهم ضيقاً مما كان يخصّهم به رسول الله ﷺ من الفيء أحياناً ليقيموا به أودهم ويسدّوا به عجزهم وفاقتهم: ﴿ والذينَ تَبَوَّؤا الدارَ والإيمانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هاجَرَ إليهِمْ وَلا يَجِدُونَ في صدورِهِمْ حاجةً مّما أوتوا وَيُؤثرونَ على أنفسِهِمْ ولـو كانَ بِهِمْ خِصاصةٌ، وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نفسِهِ فأولئكَ هُمُ المُفْلِحُونَ ﴾[3].

فلما استنفدت هذه المؤاخاة وظيفتها وعزَّ الإسلام في بـدر واجتمع الشمل وذهبت الوحشة أنزل الله سبحانه: ﴿ وأولوا الأرحامِ بعضُهم أَوْلى ببعضٍ في كتابِ اللّهِ ﴾[4]، وبذلك ألغى الميراث بهذه الأخوّة، وصار لا

---

(١) المرجع السابق. ١: ٥٠٠.

(٢) الجامع الصحيح للبخاري باب (إخاء النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار) وباب (كيف آخى النبي ﷺ بين أصحابه، قصة عبد الرحمن بن عوف مع سعد بن الربيع).

(٣) سورة الحشر، آية: ٩. والدار والإيمان من أسماء المدينة.

(٤) سورة الأنفال، آية: ٧٥.

يكون إلا بالقرابة النسبية وبما قررته آيات الميراث، ثم جعل القرآن أيضاً كل المؤمنين إخْوة، في التوادد وشمول الدعوة فقال: ﴿ إنَّما المُؤْمِنُون إخْوَة ﴾[1].

وقد ترجم المسلمون هذه الأخوّة الإسلامية عملياً في كثير من المواقف الحازبة فلم تقف أمامها أخوّة النسب، كان أبو عَزيز بن عُمير بن هاشم شقيق الصحابي الجليل مصعب بن عُمير من مقاتلة قريش في بدر، وصاحب اللواء فيهم بعد النضر بن الحارث، قال: مرّ بي أخي مصعب بن عمير، ورجل من الأنصار يأسرني، فقال: شُدّ يديك به، فإن أمه ذات متاع، لعلها تَفديه منك فقال له أبو عزيز: يا أخي، هذه وصاتُك بي، فقال له مصعب: (إنه أخي دونك)[2].

* * *

٢ ـ إهدار دماء الجاهلية:

أقام الرسول ﷺ مجتمعاً متآخياً مستنداً إلى قَيم جديـدة، يستعذب أفراده خوض الحروب في سبيل الله، فيَقتُلون ويُقتلون، وأحبُّ ما عليهم إراقة دمائهم من أجل الواجب الديني، ولكنهم في غير ذلك يعصم بعضهم دماء بعض إلّا في حدّ من حدود الله، ولكي يتحقق السلام والوئام كان لا بدّ من إنهاء حياة الثارات والإغارات، ولهذا قال الرسول ﷺ في حجة الوداع[3]: «وإن كل دم كان في الجاهلية موضوع، وإن أول دمائكم أضع، دمُ عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب وكان مسترضعاً في بني ليث فقتلته هذيل فهو أول ما أبدأ به من دماء الجاهلية». وقتل الحارثَ بن سويد بن الصامت بالمجذّر بن زياد البلوي لأن الحارث قتل المجذر في غزوة أُحد غيلة بدم أبيه في الجاهلية. وقد كانت جميع العناصر اليثربية في العصر

(١) سورة الحجرات، آية: ١٠.
(٢) السيرة النبوية لابن هشام ١: ٦٤٦.
(٣) الطبري ٣: ١٥٠.

الجاهلي ذات أذْحال وتراتٍ وحروب متواليات كان آخرها حرب بعاث كما قلنا، فأنقذهم الله بالإسلام وحقن دماءهم وآخى بينهم وأهدر فيهم كما أهدر في العرب جميعاً دماء الجاهلية، وحلَّ محل ذلك كله المحبة والمودة والوئام، وهي العناصر الأولية الكريمة لبناء أي مجتمع سعيد.

٣ ـ نبذ العصبية الجاهلية:

كان العرب ـ كما هو معروف ـ يتفاضلون بالعصبية، ويتفاخرون بالأحساب والأنساب، فلما جاء الإسلام جمع كلمتهم ووحد شملهم، وصاروا يداً واحدة على اختلاف أنسابهم وأحسابهم، تحت راية التوحيد والإيمان، لا فضل لعربي على عجمي إلّا بالتقوى. وقال الرسول ﷺ لشباب الأنصار الذين كادت تشتبك رماحهم: أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم، وقال: دعوها فإنها منتنة. وقال: من تعزَّ بعزاء الجاهلية فأعِضّوه بهن أبيه ولا تكنوا. وقال يوم فتح مكة: يا معشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظُّمها بالآباء، الناس من آدم وآدم من تراب(١).

والآيات والأحاديث كثيرة في هذا الباب.

والذي يهمنا أن المجتمع المدني بحكم هذه التربية النبوية الحكيمة تخلّص من العصبية المقيتة وأحلَّ محلَّها الحماسة لله ولرسوله وللمؤمنين، وتعلَّقَ بمبدأ وعقيدة، وشتان ما بين السبيلين منشأً ووسائلَ وغايات.

وسار الخلفاء الراشدون على هذا النهج القويم، ففي عهد عمر رضي الله عنه وطىء رجل فزاري طرف ثوب جبلة بن الأيهم ملك الغساسنة السابق، وهما يطوفان بالكعبة، فغضب جبلة لذلك وصفع الفزاري، فما كان من الفزاري إلّا أن شكاه إلى عمر وطالب بالقصاص، وأعطاه عمر هذا الحق، ولم يأبه لما قدمه جبلة من المعاذير وأنّ الفزاري سُوَقه وهو من العظماء،

---

(١) البيان والتبيين ١: ١٦٤ وتاريخ آداب اللغة العربية لجرجي زيدان ١: ١٨٩.

فإن المسلمين أمام الله سواء لا يتفاضلون إلاّ بالعافية، ولا ينالون ما عنده إلاّ بالتقوى. ووقف عليٌّ وهو خليفة مع خصمه اليهودي أمام قاضيه موقف الخصوم.

٤ ـ الغزوات والفتوح:

كانت الغزوات في عهد النبوة والفتوح في عهد الخلفاء تطبيقاً عملياً للتآخي والوحدة وإلغاء كل ما كان يحسّ به الناس من فروق وعصبيات، فقد جمعتهم على أساس تقوم فيه العقيدة مقام الدم، والمساواة مقام التفاخر، والتقوى مكان النسب، ووحدة الكلمة والاتفاق مكان التشتت والافتراق، ولذا لم تكن هذه الحركة خيراً من حيث انتشار الدعوة فحسب، ولكنها كانت كذلك خيراً من حيث أنها كانت أسلوباً للمزج بين القبائل وتحطيم ما كان بينها في الجاهلية من حواجز تحوطها، وتجعل منها هذه الجماعة المغلقة، وكانت سبيلاً إلى التلاقي على صعيد الإيمان ومواجهة الحياة والمشاركة في البذل والتضحية وخوض الكفاح المشترك من أجل المثل العليا[١].

٥ ـ إلغاء كثير من العادات والتقاليد:

كانت تسود المجتمع المدني في الجاهلية كثير من العادات والتقاليد التي أشرنا إليها في فصول سابقة، فغيّر الإسلام بعضها وأمسك عن بعض، فالمرأة مثلاً أصبحت ترث، زوجةً وأمّاً وبنتاً وأختاً، ونفقتُها واجبة على ذويها، ومن له سلطان عليها، والميسر والربا صارا محرمين، لا يتعاطاهما إلا عاص غير ملتزم بحدود الله، وقد كانا من وسائل الثراء غير المشروع الذي يكرّس الأموال في يد فئة من الناس على حساب الآخرين ويجعلها دُولةً بين الأغنياء، وكان أكبر متضرر في إبطالها اليهود.

---

(١) المجتمعات الإسلامية لشكري فيصل ص ٣١.

ومن العادات التي ظلت منتشرة بين اليهود ولم يمسها الإسلام بحكم ضمانه للحرية الدينية هي تعظيمهم ليوم السبت، فلا يصطادون فيه ولا يمسّون فيه ناراً، ولم يكن عند اليهود خطيئة أعظم من عدم حفظ يوم السبت إلا عبادة الأوثان[1]، وجاء في كتبهم المقدسة: (تعظمون يوم السبت لأنه مقدس لكم، من دنّسه يقتل قتلاً، إن كل من صنع فيه عملاً تقطع تلك النفس من بين شعبها، ستة أيام يصنع عملاً، أما اليوم السابع ففيه سبت، عطلة مقدسة للرب، لأنه في ستة أيام صنع الرب السماء والأرض وفي اليوم السابع استراح وتنفَّس)[2]، فهو عيدهم ويوم راحتهم، وجعل الرسول ﷺ للمسلمين عيداً أسبوعياً هو يوم الجمعة، ولكنه لم يجعل له أي طقوس كسبت اليهود، ولا يفترق عن الأيام الأخرى بغير إعطاء أهمية خاصة لصلاة الجمعة فيه.

وكان اليهود يعظّمون يوم عاشوراء، وهو اليوم العاشر من شهر محرم، ويصومونه اقتداء بموسى عليه السلام، لأنه يوم نجاته وبني إسرائيل من عدوهم، فعن ابن عباس قال: (قدم رسول الله ﷺ المدينة، فرأى اليهود تصوم يوم عاشوراء فقال: ما هذا؟ قالوا: هذا يوم صالح، وهذا يوم نجَّى الله بني إسرائيل من عدوهم، فصامه موسى، قال: فأنا أحق بموسى منكم، فصامه، وأمر بصيامه)[3].

وكان من نظام الزواج عند الأوس والخزرج أنه بيد الرجل وهو الذي يدفع المهر ويشترط التكافؤ، بغضّ النظر عن كون الزوجة من القبيلة أو من خارجها، وقد أقرّ الإسلام كل هذا. وكان اليهود يشترطون اتحاد الزوجين في الدين ويجيزون كالعرب الزواج بأكثر من واحدة دون حصر، ولكن المرأة

---

(١) مقارنة الأديان: اليهودية، للدكتور أحمد شلبي ـ مكتبة النهضة المصرية. ص ٣٠٨.

(٢) المرجع السابق.

(٣) البخاري بشرح الفتح ٤: ٢٤٤.

عندهم هي التي تدفع المهر على أن يردّه الرجل لها إذا طلقها[1]، ولم يجز الإسلام للمرأة المسلمة نكاح غير المسلم ورخّص للمسلمين في نكاح الكتابيات.

* * *

والخلاصة إن كل فرد في هذا المجتمع أحسّ بمسؤوليته تجاه الجماعة فالمؤمنون يسعى بذمتهم أدناهم، والمرأة أخذت حقوقها كاملة ووصلها ميراثها الذي فرضه لها الله، والعبيد لهم كرامتهم أيضاً في المجتمع الجديد، فمن لطم عبده أو منعه النفقة عتق منه. بل ذهب الإسلام إلى أكثر من ذلك في حسن معاملتهم والرفق بهم، حيث راعى الظروف النفسية التي يعيش فيها العبيد عادة فلم يؤاخذهم على أخطائهم كما يؤاخذ الأحرار، وجعلهم على النصف في الحدود، قال تعالى: ﴿ فإذا أُحصِنّ فَإنْ أتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنّ نِصْفُ ما على المُحْصَناتِ مِنَ العَذابِ ﴾[2]، قالوا: ولم يذكر الله العبيد في هذه الآية، وهم لاحقون بالإماء بطريق القياس. وكذلك عليهم نصف الحدّ في القذف والشرب.

وحصر موارد الرق في الوراثة وأسرى الحرب، ومع ذلك فقد حضّ على العتق، وتسابق المسلمون إلى ذلك، حتى لا يكاد يستقر في يدهم عبيد ممن يملكون، والإحصائية التالية[3] تكشف هذا الجانب الإنساني العظيم:

١ ـ عتقاء الرسول ﷺ	٦٣ نسمة
٢ ـ عتقاء أم المؤمنين عائشة	٦٩ نسمة
٣ ـ عتقاء العباس بن عبد المطلب	٧٠ نسمة
٤ ـ عتقاء عثمان بن عفان وهو محاصر	٢٠ نسمة

(١) يهود المغرب العربي ص ٧١ للدكتور محمد الحبيب بن الخوجة، مطبعة الجبلاوي ـ مصر.
(٢) سورة النساء، آية: ٢٥.
(٣) التراتيب الإدارية ١: ٢٩.

٥ ـ عتقاء حكيم بن حزام	١٠٠ نسمة
٦ ـ عتقاء عبد الله بن عمر	١٠٠٠ نسمة
٧ ـ عتقاء عبد الرحمن بن عوف	٣٠٠٠٠ نسمة.
	٣١٣٢٢ نسمة

فجملتهم واحد وثلاثون ألفاً وثلاثمائة وإثنان وعشرون عبداً، قصدنا من ذكرهم إلى ضرب المثل وإعطاء النموذج، وإلّا فإن غيرهم أيضاً أعتق الكثير.

ونظم الإسلام العلاقات الخاصة والعامة وحفظ للجميع حقوقهم كما طالبهم بواجباتهم.

وبهذه التربية الاجتماعية والأنظمة التي تبعتها تغير المجتمع ظهراً على عقب، وتحدّدت ملامحه الجديدة في ظل الإسلام، فهو مجتمع قائم على التآخي والعدل والوئام والشعور بالمسؤولية، مفطور على العمل والنشاط والإنتاج، يبني ولا يهدم، ويعمل لدنياه كأنه يعيش أبداً، ويعمل لآخرته كأنه يموت غداً، دعامته حضارة موصولة بالله متمثلة في العقيدة السليمة، والأخوة المتلاحمة، والجهاد في سبيل الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

* * *

د ـ البنية الاقتصادية

سبق أن ذكرنا أن الاقتصاد في يثرب الجاهلية قائم على:

١ ـ الزراعة: وكانت مشتركة بين العرب واليهود وإنْ تفوق فيها العرب إلى حد كبير.

٢ ـ التجارة: وكانت مشتركة بين العرب واليهود، وإن تفوق فيها اليهود.

٣ ـ الصناعة: كان أكثرها عند اليهود وبخاصة يهود بني قينقاع، والقليل منها جداً عند العرب كصناعة البناء، والنجارة.

واقتصاد يثرب عموماً كان بيد اليهود ثم الأوس، وكأنّ التغلب العسكري الخزرجي كانت تقابله غلبة اقتصادية أوسية، وكأن إحساس الأوس بقلة العدد أمام الخزرج دفعهم إلى تلمس القوة في الثروة، وقد ذكرنا أن أحيحة الأوسي وحده كان يملك تسعين بئراً يسقي عليها. وقد عبَّر عن هذا الوضع الاقتصادي المتباين رئيس الخزرج في حرب بُعاث، عمرو بن النعمان البياضي حين قال لقومه الخزرج يغريهم بالحرب: (يا قوم إن بياضة بن عمرو قد أنزلكم منزل سوء بين سبخة ومفازة، والله لا يمس رأسي غسل حتى أنزلكم منازل بني قريظة والنضير على عذب الماء وكريم النخل)[١].

وأما الرعي فإنه لم يكن عنصراً هاماً في أساسيات الاقتصاد اليثربي، وإنما كان يوجد على نطاق ضيق، مضافاً إلى غيره، يقوم به الغلمان والعبيد وذلك لتوفير الألبان واللحوم، ولم يكن النهب والسلب مورداً من مواردها أيضاً، لأن المدينة بلغت في جملتها مستوى حضارياً يمنعها من الغزو والتعرض للناس، ويقنعها باحترام ملكية الآخرين، وذلك ما لم يصل إليه أفراد المجتمع الرعوي الذي جعل الغزو من أهم موارده الاقتصادية، وقد كانت الزراعة والتجارة من مبررات ظهور المدينة في العصر الجاهلي، لخصوبة أرضها ووقوعها على طريق التجارة المارة من الجنوب إلى الشمال، وكان بالمدينة كما علمنا أربع أسواق تجارية هامة قامت على أساس بشري، فمنها الأوسي ومنها الخزرجي ومنها اليهودي، وهكذا[٢]... فلما جاء الإسلام دار التحرك السكاني على محور جديد هو المسجد، وبرزت للمدينة وظيفتان جديدتان هامتان: إحداهما دينية والأخرى سياسية، واتخذت الحياة الاقتصادية مساراً جديداً من حيث الشكل والمضمون، وتغيرت بعض الملامح الاقتصادية للمدينة، فاختط الرسول ﷺ بعد فترة سوقاً رئيسية جديدة في الفضاء الواسع المستطيل بناحية المدينة الغربية المعروف الآن بالمناخة وفيها مرّ الرسول ﷺ

---

(١) الوفاء: ١: ٢١٧.

(٢) انظر الكتاب الثالث من هذه السلسلة.

بائع الحب فأدخل فيه يده فوجده مبللاً، واعتبر ذلك منه نوعاً من الغش فنهاه عن ذلك[1] وقال: «يا صاحب الطعام، ما هذا؟ قال: أصابته السماء يا رسول الله، قال: أفلا جعلته فوق الطعام حتى يراه الناس، ثم قال: من غشنا فليس منا». وفيها كان عمر رضي الله عنه يحمل دِرّته ويراقب الغش والموازين.

وفي هذه السوق كان يباع ما تنتجه منطقة المدينة من تمر وشعير وخضروات وحطب، وما يجلب إليها من منتجات البادية من صوف ووبر وسمن وإقط، وما يجلب إليها من منتجات خارجية من ملابس وعطور وغيرها، حتى أنه كان للبزازين والعطارين أماكن خاصة في هذه السوق تعرف بهم، وقد اشتهر بعض الصحابة بحرفة البزازة وكسبوا منها أموالاً طائلة منهم: عثمان بن عفان، قالوا: ولم يكن يحترف غيرها. ومنهم طلحة بن عبيد الله، وعن سفيان بن عيينة أن غلّة طلحة من ذلك يومياً وافية قالوا: والوافي وزنه وزن الدينار، وعلى ذلك وزن دراهم فارس التي تعرف بالبغليّة. ومنهم: عبد الرحمن بن عوف، وعن أبي هريرة قال: دخلت السوق مع رسول الله ﷺ فجلس إلى البزّازين فاشترى سراويل بأربعة دراهم .

وكان لأهل هذه السوق وَزّان يزن، فمرّ به رسول الله ﷺ فقال: «زن وأرجح»، فقال الوزّان: (إن هذه الكلمة ما سمعتها من أحد). والواقع أن الرسول ﷺ كان يمر على كل صاحب حرفة بالسوق ويتكلم معه بما يتعلق بحرفته ويقول له ما يزيده بها اغتباطاً وبآدابها وأحكامها ارتباطاً، كأنه بذلك يقوم بمهمة التشجيع والمراقبة في آن واحد .

وفي عهد عثمان كبرت هذه السوق كثيراً، وعَيَّن فيها موظفاً خاصاً لمراقبة الموازين والمثاقيل، وهو الحارث بن الحكَم، وأعطاه على ذلك درهمين يومياً.

---

(١) التراتيب ١ : ٢٨٤.

(٢) التراتيب ٢ : ٣٣.

(٣) المرجع السابق.

وكان أبو موسى الأشعري يبيع العقاقير بالمدينة، ولما وقع بينه وبين ابن مسعود خلاف في التحريم برضاع الكبير، قال له ابن مسعود: إنما أنت مُداوٍ. قالوا: كأنه نفاه عن العلم لاشتغاله بتجارة العقاقير[1].

وكان يباع بها السكّر أيضاً فقد أخرج الدارقطني من طريق هشام بن حسان عن محمد بن سيرين قال: جلب رجل من التجار سكّراً إلى المدينة فكسد عليه، فبلغ ذلك عبد الله بن جعفر ـ وكان رجلاً كريماً ذا نجدة ـ فأمر قهرمانه أن يشتريه ويُنهبه الناس. أي يجعله بينهم فيأخذ كل منهم حاجته دون مقابل[2].

وعرف فيها بالتجارة الصبيان أيضاً، فعن عمرو بن حريث أن رسول الله ﷺ مر بعبد الله بن جعفر وهو يبيع بيع الصبيان ـ وكان إذّ ذاك صبياً ـ فقال: اللهمّ بارك له في بيعه أو صفقته.

وذكروا من النساء التاجرات بائعات العطور بسوق المدينة: أسماء بنت مخربة كان ابنها عباس بن عبد الله بن ربيعة يبعث إليها بالعطر من اليمن فتبيعه، وكذلك الحولاء بنت ثويب. ومليكة والدة السائب بن الأقرع[3].

وقد حثّ الإسلام على مزاولة الزراعة والتجارة والصناعة، وبرز تجار كبار من المهاجرين كعثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف. ولكن الصناعة كادت تختفي من المدينة بانتهاء شأن بني قينقاع، وفي عهد الخلفاء اشتغل بها بعض العبيد المجلوبين من مناطق الفتوح كأبي لؤلؤة غلام المغيرة الذي قتل الخليفة عمر رضي الله عنه، وكان للزبير بن العوام ألف مملوك كلهم يؤدون له الخراج. وبصفة عامة ازداد حجم النشاط الاقتصادي بالمدينة بحكم ازدياد حجمها السكاني وتحوّلها إلى عاصمة سياسية يأتيها الناس من كل مكان للأغراض المختلفة، وتلتقي فيها القوافل والوفود، وقد كان تخطيطها المعماري

(١) المرجع السابق ٢: ٣٩.
(٢) المرجع السابق.
(٣) المرجع السابق.

مما يساعد على قيام الأنشطة المختلفة. فقد كانت شوارعها منظمة ومنازلها واسعة ذات طوابق تصل أحياناً إلى الأربعة، إذ كان الرسول ﷺ يحب النظام حتى في نصب الأخبية في السفر، فكيف لا يحبه في محل الاستيطان والبناء المشيد، جاء في سنن أبي داود أن النبي ﷺ بعث أن يُنادَى في معسكره: إن من ضيّق منزلاً، أو قطع طريقاً، فلا جهاد له، وذلك لما ضيّق الناس المنازل وقطعوا الطرق[1].

ولكن المدينة في عهد النبوة كانت تعيش في الغالب حياة عوز وضيق اقتصادي، فقد كان الرجل منهم يعيش على الأسودين: التمر والماء، وعلى ذلك كان يحيى سيد الأمة ﷺ لا فرق بينه وبين أيّ واحد من المسلمين، ولعل ذلك راجع للظروف الحربية، وتزايد المسؤوليات وتكاثر أعداد السكان.

ومما يدل على هذه الأزمة والشدة الضاربة ما جاء في غزوة الخندق، فقد ذكر ابن هشام: أن (ابنة لبشير بن سعد أخت النعمان بن بشير، قالت: دعتني أمّي عمرة بنت رواحة، فأعطتني حفنة من تمر في ثوبي، ثم قالت: أيْ بُنيّة، اذهبي إلى أبيك وخالك عبد الله بن رواحة بغدائهما، قالت فأخذتها فانطلقت بها، فمررت برسول الله ﷺ، وأنا ألتمس أبي وخالي، فقال: تعالي يا بنيّة، ما هذا معك؟ قالت: فقلت: يا رسول الله، هذا تمر بعثتني به أمي، إلى أبي بشير بن سعد وخالي عبد الله بن رواحة يتغديانه، قال: هاتيه، قالت: فصببته في كفيْ رسول الله ﷺ فما ملأتْهما، ثم أمر بثوب فبُسط له، ثم دحا بالتمر عليه، فتبدّد فوق الثوب، ثم قال لإنسان عنده، اصرخ في أهل الخندق: أن هلمّ إلى الغداء، فاجتمع أهل الخندق عليه، فجعلوا يأكلون منه، وجعل يزيد حتى صدر أهل الخندق عنه، وإنه ليسقط من أطراف الثوب)[2]. ولا يهمنا الحديث عن الزيادة في الطعام على يدي رسول الله ﷺ فتلك معجزة، وكم لرسول الله من معجزات!. وإنما أردنا أن نشير إلى أن غداء رجلين من

---

(١) المرجع السابق ١: ٢٨٢.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٢: ٢١٨.

موسري الأنصار وهما في مواجهة القتال، لم يزد على حفنة من تمر، ولو كان في بيتهما شيء آخر لأتِي لهما به، فإنهما إذا لم ينتفعا به في الحرب فلا حاجة لهما به في السلم، ولكنه بالتأكيد غير موجود، ويعتبر الرسول الكريم ﷺ في هذا التمر فرصة لغذاء أهل الخندق جميعاً بعد أن يباركه ويباركه الله.

وإنما كانوا يأكلون من الحبوب الشعير، فعن جابر بن عبد الله قال: (عملنا مع رسول الله ﷺ في الخندق، فكانت عندي شويهة غير جدٍّ سمينة[1]، قال: فقلت: والله لو صنعناها لرسول الله ﷺ، قال: فأمرت امرأتي، فطحنتْ لنا شيئاً من شعير، فصنعت لنا منه خبزاً، وذبحت تلك الشاة، فشويناها لرسول الله ﷺ، قال: فلما أمسينا وأراد رسول الله ﷺ الانصراف عن الخندق قال: وكنا نعمل فيه نهارنا، فإذا أمسينا رجعنا إلى أهالينا، قال: قلت: يا رسول الله، إني قد صنعت لك شويهة كانت عندنا، وصنعنا معها شيئاً من خبز هذا الشعير، فأحب أن تنصرف معي إلى منزلي، وإنما أريد أن ينصرف معي رسول الله ﷺ وحدَه، قال: فلما أن قلت له ذلك، قال: نعم، ثم أمر صارخاً فصرخ: أن انصرفوا مع رسول الله ﷺ إلى بيت جابر بن عبد الله، قلت: إنا لله وإنا إليه راجعون، قال: فأقبل رسول الله ﷺ، وأقبل الناس معه، قال: فجلس وأخرجناها إليه، قال: فبرك وسمى الله، ثم أكل، وتواردها الناس، كلما فرغ قوم قاموا وجاء ناس، حتى صدر أهل الخندق عنها).

ثم تحسنت الحال بعد ذلك وجرت الأموال في يد الناس، وأصبح في إمكان رجل واحد كعثمان بن عفان أن يجهز في جيش العسرة تسعمائة وخمسين بعيراً وخمسين فرساً[2].

وفي عهد الخلفاء الراشدين ظهر في المدينة عامل اقتصادي آخر، أغنى

---

(١) غير جد سمينة: أي غير كاملة السِّمن.

(٢) التراتيب ٢ : ٣٢.

الناس وفتنهم بالدنيا، وأغرقهم في المال الوفير، ذلك هو غنائم الفتوح التي كانت تنهال على المدينة وتسري في يد أبنائها جداول من الذهب والفضة، ويكفينا مثال واحد من أحاديث الفتوح لنعلم مقدار تأثير هذه الغنائم على الوضع الاقتصادي العام في المدينة، فقد روى الطبري[1] أن المسلمين أصابوا يوم المدائن (بَهار كسرى) فثقلُ عليهم أن يذهبوا به، وكان الأكاسرة يُعدّونه للشتاء إذا ذهبت الرياحين، فكانوا إذا أرادوا الشرب شربوا عليه، فكأنهم في رياض، وكانت مساحة البساط ستين في ستين، وأرضيته مذهبة، ووشيُه بالفصوص وثمره الجوهر، وورقه بالحرير وماء الذهب، وكانت العرب تسمِّيه القِطف، فلما قسم سعد فيئهم فضُل عنهم، ولم يعرف كيف يقسمه بينهم، فجمع سعدٌ المسلمين، فقال: إن الله قد ملأ أيديكم، وقد عسر قسمُ هذا البساط، ولا يقوى على شرائه منكم أو من غيركم أحد، فأرى أن تطيبوا به نفساً لأمير المؤمنين يضعه حيث شاء، ففعلوا، فلما وصل البساط إلى عمر بالمدينة قسمه بين الناس، فكان الذي أصاب منه عليٌّ بن أبي طالب قطعةً منه، باعها بعشرين ألفاً وما هي بأجود تلك القطع.

هذا وقد وضع الإسلام الإطار العام للحياة الاقتصادية وترك الجزئيات للناس يتصرفون فيها حسب الحاجة ووفقاً لما تمليه الظروف المطيفة والعقول الحصيفة، فأحل الله البيع وحرم الربا، ووضع الأسلوب العام للمعاملات المالية المختلفة، وفي الوقت الذي قرر فيه أن الله فضل بعض الناس على بعض في الرزق، وضع الخطط الكفيلة بالقضاء على الفقر وإلغاء الفوارق الشاسعة بين الطبقات، ففرض الكفارات المالية وحثّ على الصدقات وفرض في أموال الأغنياء حقاً سنوياً معلوماً للفقراء هو الزكاة، وأكثر من ذلك كله جعل العمل في أي حقل من حقول الإنتاج نوعاً من العبادة التي يؤجر عليها الإنسان وينال بها رضا الله، وذم تكفّف الناس ومسألتهم، ولأنْ يحمل الإنسان حبله فيجمع به حزمة من حطب يأتي بها السوق فيبيعها: خير له من

---

(١) الطبري ٤ : ٢٢.

أن يسأل الناس أعطوه أم منعوه، وأخبر الرسول ﷺ بأن وجه السائل يتمزع ويتساقط بكل مسألة مزعة، ولعمري إن ديناً يربي أهله على هذه الجادة لجدير بأن ينهض بهم ويحقق لهم حياة اقتصادية رخيّة متكاملة، وما فتىء الإسلام على مر العصور خير نظام قادر على تحقيق مثل تلك الحياة، وما قصر في ذلك في عصر من العصور، ولكن أتباعه ممن جهلوه أو جحدوا فضله، قصّروا، وراحوا يطلبون الحل عند غيره فأخزاهم الله بما فعلوا وجعلهم نهباً للشعوب.

* * *

هـ - البنية السّياسيّة

من خلال ما استعرضناه من أوجه الحياة اليثربية الجاهلية علمنا أن كل مقومات التحضر والحياة المستقرة كانت متيحة لأهل يثرب أن يصلوا إلى مستوى أفضل مما وصلوا إليه، ولكن حياة الحرب التي عاشوها حالت بينهم وبين تحقيق ذلك المستوى اللائق بها كمدينة ذات أرض خصبة ومياه وفيرة وموقع ممتاز، وعاشت حياة مضطربة قلقة أشبه ما تكون بحياة المجتمع الرعوي، غير بعض الفترات القصيرة من سلم لا يلبث أن يفيض كقطرة ماء في يوم قائظ من أيام السّموم. مما أفقدها التقدير في قلوبهم، فشخصوا بأعينهم إلى مكة، يرون فيها النموذج الكامل للعقل والحلم والأناة وحسن السياسة والرأي، وإذا وجدنا في تاريخ المدينة الجاهلي محاولات لتأسيس الحكومة فإن ذلك لم يتعدّ في حقيقته مجرد الطموح والتطلع، فقد عاش حلم الحصول على الحياة الآمنة في وجدان حكمائها، ولكن لم يكتب لذلك الحلم أن يتحقق بل كان سرعان ما يتحطم على صخرة الصراع والحروب.

ورغم هذا الاضطراب في الداخل فقد استطاعت يثرب، أن تحقق قدراً من حضارة، وأن تقيم علاقات حسنة مع أهم المدن القائمة في الحجاز ومنها مكة والطائف وخيبر كما أشرنا إلى ذلك في موضعه[1]، وكانت لها أيضاً علاقة

---

(١) انظر الكتاب الثالث من هذه السلسلة.

طيّبة بالغساسنة استوجبت أن يهبّوا لمساعدتها في الوقت المناسب، ورغم أن التاريخ لم يتحدث عن علاقة واضحة بينها وبين الدول الأخرى المحيطة بالجزيرة العربية كالفرس والروم وبابل وأشور واليمن، فإن نقوش تلك الدول وتواريخها لم يكن في وسعها - كما يبدو - أن تتجاهل يثرب ولا تذكرها، وقد أوردنا في بداية هذه الدراسة ما يدل على ذلك[1]، وهذا يدل في مجموعه على مكانة خاصة لها وعلاقات معيّنة كانت قائمة وإن سقطت من ذاكرة التواريخ الأخرى التي وصلتنا.

وكانت لهم صلات كبيرة أيضاً بكثير من القبائل التي حولهم، بلغت حد التحالف وعقد المعاهدات، فقد تحالف الأوس مع مزينة التي كانت تعيش شرقي المدينة، ولهذا أو غيره تعرضت هذه القبيلة لهجاء حسان شاعر الخزرج، كما تحالف الأوس مع بني سُليم الذين كانوا يعيشون شرقي المدينة أيضاً، وحالف الخزرج قبيلة جهينة التي كانت تقطن غربي المدينة، وقبيلة أشجع التي كانت تسكن في شمالها الغربي[2]. ولم تقتصر محالفاتهم على القبائل القريبة، فقد كانت للأوس محالفات مع قبائل بعيدة عن يثرب أيضاً كبني عامر وعبس وذبيان كما ورد في شعر ابن الخطيم.

وكانت الغلبة والسيطرة في الداخل بيد اليهود - كما رأينا - ثم استطاع العرب أن يصلوا إلى عقد حلف بينهم وبين اليهود يضمنون به بعض مصالحهم، فلم يزالوا على ذلك زماناً طويلاً، فلما كثر الأوس والخزرج وصار لهم مال وعدد خافهم اليهود وخشوا أن يغلبوهم على دورهم وأموالهم، فتنمروا لهم وقطعوا الحلف الذي كان بينهم[3]، وكان العرب لهم بالمرصاد، فقاموا ووضعوا حدّاً لغطرسة اليهود وتحكّمهم فيهم، وبذلك انتقلت السلطة إليهم، وعاش بينهم اليهود حلفاء فكان النضير وقريظة حلفاء للأوس، ولذلك كان المحكّم في قريظة هو كبير الأوس سعد بن معاذ الأشهلي رضي الله

(١) انظر الكتاب الثالث من هذه السلسلة.

(٢) الأغاني ١٥ : ١٥٩ التقدم.

(٣) الوفاء ١ : ١٧٨.

عنه، وكان بنو قينقاع حلفاء للخزرج، ولذلك تصدّى لحمايتهم عبد الله بن أبيّ بن سلول حين حاصرهم الرسول ﷺ، وقامت محاولات لإقامة الدولة العربية باءت بالفشل، لأن اليهود استطاعوا بخبثهم أن يوقعوا بين الحيين فكانت بينهم تلك الحروب الضارية التي تحدثنا عنها[1] إلى أن ظهر الإسلام، وحظيّت المدينة بالهجرة النبوية الشريفة التي غيَّرت مجرى حياتها ودخلت بها، وبالعرب جميعاً التاريخ من أوسع أبوابه، وقدمت للإنسانية أعظم نموذج للحكومة المثالية الصالحة فقد بدأ الرسول ﷺ عقب وصوله إلى المدينة يوم الاثنين الثاني عشر من شهر ربيع الأول بوضع سلسلة من التنظيمات السياسية والإدارية والاجتماعية والمالية، وكان هدفه الأول هو حماية المسلمين لقلّتهم، وتثبيت قدم الإسلام ونشره في المدينة وخارجها[2]، وفي الواقع إن الأحوال الجديدة في المدينة ألقت على الرسول كثيراً من المسؤوليات وتطلبت منه أن يضع نظاماً سياسياً واجتماعياً واقتصادياً لتفادي الخصومات والخلافات التي كانت بين قبائلها، وإعداد هذا المجتمع للنهوض بمسؤولياته التاريخية وأمانته الدينية، وتهيئته للقيادة السياسية العالمية، ولم يكن هذا العمل سهلاً في مجتمع تأصلت فيه روح الفرقة بأعنف مظاهرها، وامتلأت قلوب أهله، عرباً ويهوداً بالأحقاد، وقد تمثلت عناصر ذلك التنظيم الأولي فيما يلي:

١ ـ بناء المسجد:

إن المتبادر إلى الأذهان أن الغرض الأساسي من بناء المسجد أيّ مسجد، هو إقامة الصلوات والتفقه في الدين، وذلك بلا شك غرض أساسي من وجوده، ولكن هناك غرضاً هاماً آخر لا يجوز بحال أن ننساه، هو اجتماع المسلمين لإرساء قواعد الوحدة بينهم وبحث جميع ما يهمهم من شؤون الحياة.

كان في إمكانهم أن يصلّوا في أيّ مكان، فقد جعلت لهم الأرض

(١) انظر الكتاب الثالث من هذه السلسة.

(٢) دراسات في النظم العربية والإسلامية لليوزبكي ص ٢٣.

مسجداً وطهوراً، ولكن أين كـان سيجتمع هؤلاء الأتبـاع بقائـدهم؟ وما الوسيلة لتوحيد صفوفهم؟ إن أيّة دار من دور الأنصار لم تكن لتستوعب أعدادهم المتزايدة، نعم كانوا في مكة يجتمعون في دار الأرقم بن أبي الأرقم، ولكن ذلك حين كـانت الدعـوة سرّيـة وعدد المسلمـين قليلاً، أمّـا الآن فالمسلمون في دور المواجهة والاستعداد للبناء والجهاد، فلا بدّ من مستقر فيه يعبدون ربهم ويناقشون أمورهم ويتلقون وحي الله، ولكي يؤدي المسجد هذه المهمة لا بدّ أن يكون اتساعه متناسباً مع عدد مرتاديه، ولهذا بنى الرسول ﷺ مسجده مرتين، بناه حين قدم المدينة مائة ذراع في مثلها، فلما فتح الله عليه خيبر وضاق المسجد بالمصلين عام سبعة للهجرة عاد فبناه مرة ثانية، وزاد عليه في الدور مثله كما يقول ابن النجار[1]. ولعمري إن الأمة الإسلامية لم يصبها البوار والانهيار إلاّ حين تخلت المساجد عن هذه المهمة، وأصبح ينظر إليها مجرد أماكن للعبادة كالكنائس والبيع، وما لأجـل ذلك فقط أسست المساجد في الإسلام.

وأنا هنا لا أُريد الاسترسال في الحديث عن مهمة المسجد في الإسلام ولكن أريد أن أبينّ أهمية بناء المسجد الذي شاده الرسول ﷺ في المدينة، في إقامة الحياة السياسية بجانب وظيفته الدينية، فالجماعة الإسلامية بـالمدينـة تجتمع خمس مرات في اليوم، يتعهد بعضهم بعضاً، ويتبلّغون برغبة القائد وأوامر الله، ولا صلاة لجار المسجد إلاّ في المسجد، وجاره هو كل من يسمع النداء، وأي تنظيم سياسي في العالم، لم يستطـع أن يضبط أتباعه بهـذه المواعيد ويجعلهم يسلّمون أنفسهـم للقيادة خمس مرات يومياً!.

كانت الصلاة في المسجد إذن من أهم وسائل توحيد الأمة وجمع الشمل وتأليف القلوب، وأيّ شيء أقدر على تحقيق هذه الأغراض من لقاءات خيّرة تجتمع فيها النفوس على حب الله، وتلتقي على المودة والصفاء في المسجد

---

(١) أخبار مدينة الرسول المشهور بالدرة الثمينة لمحمد بن محمد النجار ص ٦٩ ـ تحقيق صالح جمال ـ دار الفكر ـ بيروت.

الذي أسس على التقوى[1]؟. وبهذا التوسع في مهمة المسجد أصبح المسجد منطلقاً للدعوة وموئلاً للأتباع، ومقرّاً لقيادة الجيش، تُعقَد فيه الألوية، وتصدر منه الأوامر للقواد، وداراً للندوة، يجتمع فيه المسلمون كلما حزبهم أمر، في كل قضية تتعلق بمصلحة المسلمين، فما هو إلّا أن ينادي المنادي (الصلاة جامعة)[2] حتى ترى المسلمين يأتون إلى المسجد زرافات ووحداناً ليستوضحوا الأمر، ويلتقوا مع القائد في شأن من شؤون الإسلام. وكان المسجد أيضاً داراً للقضاء ومنتدى للشورى، ومنزلاً للوفود واستقبال رسل الملوك.

وباختصار كان المسجد هو عصب الحياة الجديدة، ومحورها الذي تدور عليه، ومن هنا تبرز أهميته كمشعل للعقيدة ومصدر للتنظيم السياسي والاقتصادي والاجتماعي في ظل دولة الإسلام.

٢ ـ المؤاخاة:

كانت المؤاخاة وقد تكلمنا عنها في الحديث عن البنية الاجتماعية من أهم الوسائل لإقامة البناء الاجتماعي على أساس من المودة والتآلف والصفاء، ولإذهاب الوحشة من نفوس المهاجرين، ولحلّ مشكلة البطالة بينهم، إذ لم يكن مع المهاجرين مال يستثمرونه ولا تجارة يديرونها في الأسواق ولا حرفة يزاولونها، وكان لا بد من تأمين الحياة لهم بشتى الوسائل، وقد هيأ لهم الرسول ﷺ بهذه المؤاخاة أسباب الرزق والعمل، فأشركهم الأنصار في أموالهم واستعملوا بعضهم في أراضيهم مزارعة، وأقرضوهم الأموال، ودلّوهم على الأسواق، وهم قوم من مكة على خبرة كبيرة في التجارة، فتاجروا وربحوا، وقد رأى النبي ﷺ عبد الرحمن بن عوف بعد أيام قليلة من هجرته

---

(١) المدينة المنورة عاصمة الإسلام ودولته الأولى للدكتور محمد السيد الوكيل ص ١٤٧ رسالة دكتوراه بالأزهر ١٣٩٩هـ ـ لم تنشر.

(٢) الجامع الصحيح للبخاري ٣: ٥٣٣.

وعليه وضر من صفرة، فقال له: مَهْيم يا عبد الرحمن، قال: يا رسول الله، تزوجت امرأة من الأنصار، قال فما سقت فيها؟ قال: وزن نواة من ذهب، فقال النبي ﷺ: «أولِـمْ ولو بشاة»[1]. وصولحت امرأته التي طلقها في مرضه عن ربع الثمن بثلاثة وثمانين ألفاً[2].

وقد ذكرنا أن هذه المؤاخاة لم تكن عادية بل كانت من القوة بحيث يحق لأحد الأخوين أن يرث بها أخاه بعد الممات، وبعد غزوة بدر زالت الظروف الاقتصادية لهذه المؤاخاة فلم يعد يجوز التوارث بها ورجع كل إنسان إلى نسبه، وورثه ذوو رحمه، ونزل قوله تعالى: ﴿ وأولوا الأرحامِ بعضُهُمْ أَوْلَى ببعْضٍ فِي كِتابِ اللَّهِ ﴾ ثم نزلت كل آيات المواريث مبيَّنة في سورة النساء، ولكن معانيها الاجتماعية والدينية ظلت قائمة حتى اليوم: ﴿ إنما المؤمنون إخوة ﴾.

ولعل من المناسب أن نذكر أن هذا الإنجاز الاجتماعي والاقتصادي والسياسي العظيم إنما تمّ في المسجد أيضاً، قال ابن حجر عن أبي سعيد: (كان الإخاء بينهم في المسجد)[3]، وذلك بلا شك مما يؤكد أهمية المسجد في حياة المسلمين والإسلام.

٣ ـ الدستور المدني لأهل المدينة:

ومن التنظيمات الهامة التي قام بها الرسول ﷺ في هذه الأثناء وضع وثيقة[4] أو صحيفة تنظم العلاقات بين السكان، وقد أورد لها المؤرخون نصاً واحداً مع اختلافات جزئية ضئيلة في قراءة بعض الكلمات، وقد آثرنا تسميتها

(١) الجامع الصحيح للبخاري ٧: ٢٧٠.

(٢) التراتيب ٢: ٢٧.

(٣) فتح الباري ٧: ٢٧١.

(٤) السيرة النبوية لابن هشام ١: ٥٠١، والبداية والنهاية ٣: ٢٢٤ ـ ٢٢٦، والبدء والتاريخ للمقدسي ٤: ١٥٣ ـ ١٥٤، ومجموعة الوثائق لمحمد حميد الله ص ٤١ ـ ٤٧.

بالدستور المدني لأهل المدينة، لأنها في واقعها تنظيم مرحلي للعلاقة بين المسلمين والمهاجرين والأنصار، وبين اليهود والمشركين، وقد كان المسلمون أحوج ما يكونون إليها، فهم في حاجة إلى الدعم والتأييد والدخول في سلم مع كل الأطراف التي يختلف الرسول معها، تمهيداً لترسيخ قواعد الحكومة الجديدة في المدينة، وإيجاد صيغة من التفاهم مع اليهود في المدينة وكف أيديهم عن التعاون مع قريش.

ولا ريب أن أسلوب الوثيقة ينمّ عن أصالتها، فنصوصها مكوّنة من جمل قصيرة غير معقدة التركيب، وأغلب نصوصها مكتوب على نمط واحد، وهي تستعمل تعابير وكلمات ملائمة لروح العصر، ولا نظر لرأي المستشرق مونتجومري وات، الذي رأى أن المغايرة في التعبير بين مثل (مؤمنون ـ مسلمون) يدل على أنها كتبت في فترات مختلفة ثم جمعها المؤرخون بعد ذلك في صيغة واحدة[1]، لأن القرآن نفسه يجمع مثل هذه الكلمات في الآية الواحدة أحياناً.

والوثيقة مقسمة إلى ثلاثة فصول أو أقسام: أولها: خاص بالمسلمين، الثاني: خاص باليهود، والثالث: عام عن المدينة. وبينما يرى[2] بعضهم أنها كتبت قبل بدر، يرى البعض الآخر أنها كتبت بعد وقعة بدر وذلك لاشتمال بعض بنودها على الإشارة إلى القتال في سبيل الله وأن محمداً هو الحكَم في الخلافات التي تقوم بين الأطراف المختلفة في المدينة ونحو ذلك، ومن المعروف أن القتال لم يؤذن به في السنة الأولى للهجرة، كما أنه لم يكن لمحمد ﷺ هذا المركز في المدينة إلّا بعد انتصاره في غزوة بدر، وقد يكون أصحاب هذا الرأي على حق إلى حد كبير، لاتفاق رأيهم مع روح الأحداث ومجريات الأمور.

ولسنا نعلم ما إذا كانت بنود هذا الدستور (الوثيقة) قد صيغت إثر

---

(١) تاريخ العرب القديم وعصر الرسول ص ٤٤٧.

(٢) المرجع السابق.

مفاوضات ووُضعت على شكل معاهدة.؟ أو وضعت هكذا ابتداءاً.؟ ففي ديباجتها (بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من محمد النبي بين المؤمنين والمسلمين من قريش وأهل يثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم) فهي لا تشير إلى فريق ثان فاوضه الرسول أو تعاهد معه، ولهذا فإنني أرجح أن الرسول ﷺ بعد رجوعه من غزوة بدر وتزايد حسد اليهود ومبادرتهم بالشغب وقد عاد منها عودة المنتصر القادر، رأى أن يضع حداً لأوضاع كانت تقلقه فيما قبل بدر، وينظم الحياة في المدينة على أساس الوضع الجديد الظافر للمسلمين، وجعل مسؤولية تطبيق هذه الوثيقة على كل من في المدينة، فهو الحاكم الأعلى فيها وصاحب السلطة الذي تُردُّ إليه الأمور.

وقد صيغت هذه المعاهدة في إطار معاصر، فوصلت إلى سبعة وأربعين بنداً[1]، يمكن إيجازها فيما يلي:

١ ـ اعتبار جميع المسلمين على اختلاف فئاتهم وانتمائهم القبلي أمة واحدة من دون الناس.
٢ ـ التضامن التام والمسؤولية الكاملة بين أفراد الجماعة الإسلامية.
٣ ـ فتح المجال أمام اليهود الراغبين في الدخول في الإسلام، وضمان نفس الحقوق والواجبات لهم وعليهم.
٤ ـ تقرير حرية الاعتقاد لليهود.
٥ ـ الحق في فضّ الخصومات بين أهل المدينة يعود لله ورسوله.
٦ ـ حدّدت الصحيفة لأهل المدينة جميعاً بفئاتهم المختلفة موقفاً واضحاً من قريش لا يجوز لأيٍّ أن يحيد عنه، كما حدّدت نفس الموقف بالنسبة لكل من يناصر قريشاً من غيرهم.
٧ ـ الدفاع عن المدينة مسؤولية جماعية تتساوى فيها جميع الفئات.

---

(١) المرجع السابق ٤٤٢ ـ ٤٤٦، ويرجع في توثيق نص هذه الصحيفة لمحمد السيد أحمد الوكيل في رسالته غير المنشورة للدكتوراه (المدينة المنورة عاصمة الإسلام ودولته الأولى) ص ١٥٣ ـ ١٥٤.

٨ ـ أوضحت الوثيقة أن الحرب مسؤولية جماعية وأنه في حال نشوبها، على كل فريق من فرقاء المدينة أن يتحمل النفقة التي تترتب عليه.

٩ ـ قررت الوثيقة حرمة المدينة، أي أنه يحرم فيها ما يحرم في مكة.

١٠ ـ قررت الوثيقة في أكثر من موضع المسؤولية الجماعية لكل فئة من الفئات المسلمة (مهاجرين وأنصار) فيما يتعلق بالديات والفدْيات، كما قررت مسؤولية الجماعة المسلمة كلها على هذين الأمرين بقطع النظر عن انتماء المسؤول المباشر إلى فرع معين من فروع المسلمين.

١١ ـ أوضحت الوثيقة شدة الصلة بين المؤمن والمؤمن، هذه الصلة التي تبلغ حدّ التفضيل على القرابة بالتوالد.

١٢ ـ قررت الوثيقة أهمية الولاء والجوار، وأعطت المولى والجار نفس الحقوق والواجبات التي أعطتها لأبناء القبائل العربية أو اليهودية.

١٣ ـ لا يجوز إيواء مُحدِث أو مناصرته، فمن فعل شيئاً من ذلك من المؤمنين باء بلعنة الله وغضبه ولا يقبل منه صرف ولا عدل.

ونلاحظ أن هذه المعاهدة تمثل تنظيماً راقياً لأسس الحياة، ويقول الأستاذ الشريف: ولا نكاد نعرف من قبل، دولة قامت منذ أول أمرها على أساس دستور مكتوب غير هذه الدولة الإسلامية، فإنما تقوم الدول أولاً، ثم يتطور أمرها إلى وضع دستور[1].

ولكن هذه الوثيقة لم تكن غير تنظيم مرحلي للحياة الإسلامية وإلّا فإن الدستور الحقيقي للأمة الإسلامية هو القرآن الكريم، إليه ترجع في كل أمورها وأحكامها، وسنة رسول الله ﷺ هي المفسرة لهذا الدستور والمبينة المقيدة والموضحة، فإذا لم يوجد نص من قرآن أو حديث رُجع إلى إجماع أهل الحل والعقد من أمة محمد، أما ما لم يرد فيه نص ولا إجماع فمرده إلى القياس، والقاعدة الثابتة أنه لا اجتهاد مع وجود النص. هذه هي القواعد

(١) مكة والمدينة ـ أحمد إبراهيم الشريف ص ٣٨٧ ـ دار الفكر العربي.

الأساسية للحكم الإسلامي إلى يوم القيامة، ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾.

* * *

والملاحظ أن الإسلام إنما وضع القواعد العامة للحكم والسياسة، تلك القواعد التي تَنْدرج تحتها جزئيات كثيرة، ولم يتعرض لهذه الجزئيات بالنص، لأنها تختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة، وهنا ينفتح للعلماء باب الاجتهاد على مصراعيه، فمن اجتهد وأصاب فله أجران ومن اجتهد وأخطأ فله أجر واحد.

ولا ننس أن الإسلام حثّ على تحقيق أمور هامة في المجتمع الإسلامي منها: العدالة: ﴿إنَّ اللَّهَ يأمرُ بالعدلِ والإحْسَانِ﴾، والمساواة: «الناس سَواسِيَّة كأسنان المشط»، والشورى: ﴿وأمْرُهُمْ شُورى بَيْنَهُمْ﴾، ﴿وَشَاوِرْهُمْ في الأَمْرِ﴾، وحرية الأفراد: (متى استَعْبَدْتُمْ النَّاسَ وقَدْ وَلدتهُمْ أمهاتُهُمْ أَحْرَاراً)، وتحكيم كتاب الله في كل ما ينجم: ﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ، ثم لاَ يَجِدُوا في أنفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾، وغير ذلك من المبادىء المبسوطة في كتب الفقه والحديث والفكر الإسلامي.

ثم كانت التحركات العسكرية والغزوات على عهد الرسول ﷺ لإزالة الأشواك من طريق الدعوة ولتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى. وقد سجل حسان بن ثابت وغيره من الشعراء ذلك الكفاح المجيد في أشعارهم التي ستكون محل دراستنا في الفصول اللاحقة إن شاء الله. وصحب كلّ ذلك كثيرٌ من التنظيمات التي يستحسن الرجوع إليها في كتب السيرة، كسيرة ابن هشام والبداية والنهاية لابن كثير، لأن الاسترسال في الحديث عنها يطول ويخرج بنا عن الهدف الأساسي من هذه الدراسة.

وبعد انتقال الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى نشأت الخلافة الإسلامية

ونمت النظم حسب الحاجة والأحوال، وكان لنظام الخلافة والإمامة وولاية العهد شأن في تحريك المجتمع المدني، كان من آثاره: حادثة السقيفة، ومقتل عثمان بن عفان، والنزاع بين علي ومعاوية. ثم انتقلت الخلافة إلى دمشق ففقدت المدينة وظيفتها السياسية في العالم، ولكنها لم تفقد وظيفتها الدينية، فالإيمان يأرز إلى المدينة، ومن استطاع أن يموت في المدينة فليمت، والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون.

ولا يزال المسلمون في جميع أنحاء العالم الإسلامي يتعشقونها ويحنّون إليها، ويتمنّون لَثْم ترابها، وتقبيل أعتابها، ويودون أن يحظوا بنمير مائها وعليل هوائها، وأن يُحشروا يوم القيامة مع صدِّيقيها وشهدائها، مع صاحب لوائها محمد ﷺ.

* * *

الفصل الثاني

أثر الإسلام في الثقافة والأدب

أولاً - في الجانب الثقافي

ثانيًا - في الجانب الأدبي



لم تكن الدعوة الإسلامية في الحياة العربية حدثاً دينياً فحسب، وإنما كانت انقلاباً في المفاهيم، وتغيّراً في القيم، وحدثاً اجتماعياً ضخماً تناول بالتأثير كل مظاهر الحياة، وتغلغل في الأعماق النفسية الداخلية الخاصة للأفراد، وشمل بطوابعه الحياة الخارجية الاجتماعية المشتركة، وترك بصماته الحية فوق كل اتجاه، فاستوعب عواطف الناس وأفكارهم وسلوكهم، وتناول بالتغيير الشامل النفوس جميعاً، وألقى فيها بذور الحق والخير، فإذا بالإنسان العربي داخل المدينة وخارجها ينفض عنه غبار الخنوع للأوثان، والدينونة لأصنام هو صانعها ويتطلع للخالق الأعلى فوق سبع سماواته، ويتفهم حقيقة وجوده، وتَشرُف أمام عينيه الغايات، فيستسهل الصعب ويستصغر العظائم من أجل عقيدة ومبدإ لا من أجل نسب وقبيلة، وينذر نفسه لله، وتتفتح له آفاق الحضارة وآماد الفكر النابض بالحياة، وكان من ذلك كله حصاد جديد هو هذه الحياة الإسلامية الفاعلة البناءة بكل طوابعها وخصائصها وألوانها، وما الثقافة والأدب إلّا جزء من هذه الحياة الاجتماعية الواعية، ولا نزاع في أنه قد أصابها من التأثير ما أصاب الحيوات الأخرى، وأنه لحقها من التفاعل مع الدعوة الجديدة التي كانت تحمل أنسامُ المدينة الغافية على أحضان أُحُد، أصواتَها وأصداءَها، وتَنشر عقائدَها ومُثُلها، وتبشّر الآيات القرآنية والأحاديث النبوية بقيمها ودعائمها، مِثْلُ القَدْر الذي لحق ألوان الحياة الأخرى، ولعل الثقافة بحكم أنها تشمل كل أنواع المعارف الإنسانية، والأدب بحكم كونه

التعبير الجميل عن الخلجات النفسية والومضات الفكرية يكونان أكثر مظاهر الحياة تأثراً بهذه الدعوة الجديدة، ولعل التأثر في هذين الجانبين مرده إلى ما أحدثته هذه الدعوة من هجرة نفسية داخل الذات العربية، تلك الهجرة التي باعدت بين العرب في المدينة وغيرها، وبين عوالمهم التي كانوا يعيشون فيها عن إيمان واقتناع، أو التي كانوا يحاولون التخلص منها بوسائلهم المحدودة.

والقرآن نفسه ينيط التغير الحضاري بمثل هذه الهجرة النفسية الداخلية، ويؤكد على أهميتها في النهوض والبناء. فيقول: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ ﴾[1].

ونحن في هذا الفصل نريد أن نبحث بإجمال مدى التأثير الثقافي والأدبي الذي أحدثته هذه الدعوة ونكشف عن طبيعة التفاعل الذي رافقه، وما أدى إليه من صور وما اتخذ من أطوار.

أولاً ـ في الجانب الثقافي

الحوادث الكبرى في التاريخ الإنساني من شأنها أن تهز كيان الأمة التي تشملها وتقع تحت طائلتها، كما تهز العواصف الضارية كيان الأشجار، ومن العواصف ريح صَرْصر لا تبقي ولا تذر، ومنها رياح لواقح يعقبها الإثمار والإخصاب، وهي بهذه الصفة تكون في الغالب خطّاً فاصلاً بين عصرين في حياة الأمة، قد يكمّل التالي منها سابقَه ويتمّ ما فيه من نقص وقصور، وقد يتناقض معه ويتدابر، فيجتث بناءه من أساسه، ليضع مكانه أصولاً لحياة جديدة لها سماتها المميزة ومعالمها الخاصة، وهذا هو الشأن بالنسبة للحوادث الكونية الداخلة تحت القدرات البشرية أو الخارجة عن نطاقها، ويكون الأمر أعظم شأناً وأبعد أثراً إذا كان ذلك الحدث رسالة سماوية كالرسالة المحمدية التي حملت في طواياها من اللحظات الأولى بـذور الاستمراريـة والشمول والتغيير، فربطت الإنسان بخالقه، ودعته إلى القراءة والعلم والتعلّم، ونبهت فيه مواطن التفكير: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ، خَلَقَ الإنسانَ مِنْ عَلَقٍ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأكْرَمُ الذي عَلَّمَ بالقَلَمِ، علّمَ الإنسانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾[٢].

وقد كان لليهودية شأن، وكان للمسيحيـة شأن، ولكنهـما كانتـا في عمومهما ديانتين مرتبطتين بظروف، موقوتتين بزمان محدود، ومع ذلك فإن

---

(١) سورة الرعد، آية: ١١.

(٢) سورة العلق، آية: ١ ـ ٥.

أثرهما لا يزال ممتداً حتى اليوم. والإسلام دين الله الخالد الشامل، حمل في ثناياه كل عوامل التجديد والتغيير، فكان له ما كان في حياة المجتمع العربي المسلم في المدينة، روحياً وفكرياً، وعقلياً وحضارياً، من خلال تصوّر خاص للإنسان والكون والحياة، وقد أعطى هذا التصور قدْراً عالياً من المعرفة والسلوك، وحقق نمطاً حضارياً مستقلاً متميزاً، يوازن بين المادة والروح، ويهتم بالعلم والفن، ويرتقي بالإنسان إلى أعلى ذروات المجد والكمال. ومن الطبيعي في هذا الإطار أن تتميّز الثقافة الإسلامية عن الثقافة الجاهلية وتختلف معها في كثير من الوجوه، لقد أعاد الإسلام صياغة الإنسان العربي من الداخل، وزرع فيه قيماً جديدة تعدّه لتحرير نفسه وقيادة الكون والقوامة على شريعة الله، وهي مهمة لا تتحقق إلّا بمضمون ثقافي جديد، هو هذا الذي جاء به القرآن والسنة وحياة الرسول الكريم والأصحاب الأبرار، وما ترتب على كل أولئك من تطبيقات عملية بهرت العالم في جميع المجالات.

- ١ -

ذلكم هو التراث الثقافي الذي يهمنا أن نشير إلى بعض جذوره ونتائجه في هذا الفصل:

أ ـ تحرير الإنسان من الخرافات:

قضى الإسلام على كل مظاهر الوثنية وما كان يصحبها من كهانة وسحر وشعوذة، وحرّر الإنسان من سلطان عبادة الأوثان، ودعاه إلى أن يتأمل في ملكوت السماء والأرض ليهتدي إلى الخالق الحقيقي المدبر لهذا الكون، الذي ربط الأسباب بالمسببات، وقدّر لكل شيء خلَقه مساراً وغايةً لا يعدوها: ﴿ إنَّ في خَلْق السمواتِ والأرضِ واختلافِ الليلِ والنَّهارِ لآياتٍ لأولي الألبابِ، الذينَ يَذكرونَ اللَّهَ قياماً وقعوداً وعلى جُنوبِهمْ وَيتفكّرونَ في خَلْقِ السَّمواتِ والأرضِ رَبَّنا ما خَلَقْتَ هذا باطلاً سُبحَانَكَ فَقِنا عَذابَ

النارِ ﴾[1]. ﴿ والسماءَ بَنَيْنَاها بأيدٍ وإنَّا لَموسِعونَ، والأرضَ فَرَشْناها فَنِعْمَ الماهِدونَ، وَمِنْ كلِّ شيءٍ خَلَقْنا زَوْجَينِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرونَ ﴾[2]، وكلُّ ما يعبد من دون الله باطل محصوب به وبعابده في النار، ومن جاء كاهناً وصدّقه فهو كافر بما أنزل على محمد، فهذه الأوثان لا تزيد عن كونها جمادات عاجزة لا تملك لنفسها ضراً ولا نفعاً، ﴿ وإنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبابُ شَيْئاً لا يَستنقذوهُ مِنْهُ، ضَعُفَ الطالبُ والمطلوبُ ﴾[3].

وإن أول خطوة صحيحة في طريق الفكر السليم هي تحرير العقل من نير الخرافات والترهات، وقد حقق الإسلام هذا عن طريق توجيه الإنسان إلى عبادة الله وحده، ونبْذ كل ما يتصل بعبادة الأوثان.

ومن ثَمّ في إمكاننا أن نقول مطمئنين: إن العقلية اليثربية كانت بعيدة كل البعد منذ أن خالطها الإسلام عن كل تفاهة وخرافة، موصولة بالكون والحياة، سائرة في طريق الفكر الصحيح، مسهمة بعطائها في بناء الصرح الثقافي الشامخ، ومنها شع هذا التحرر العقلي على ما حولها من بلاد.

ب ـ تكريم العقل:

كرم الإسلام العقل وأجلّه، ونبه إلى أنه الفارق الحقيقي بين الحيوان والإنسان وأنحى باللائمة على أولئك الذين لا يستخدمون عقولهم ولا يستغلون ما أنعم الله به عليهم من إدراك وقدرة على التمييز، وشبّههم بالأنعام تارة، وبالصم البكم العُمي تارة أخرى: ﴿ لَهُمْ قُلوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أولئكَ كالأنعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أولئكَ هُمُ الغافِلُونَ ﴾[4]. وركّز على أن الله جعل سبيل تحصيل المعرفة

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١٩١.

(٢) سورة الذاريات، آية: ٤٩.

(٣) سورة الحج، آية: ٧٣.

(٤) سورة الأعراف، آية: ١٧٩.

ثلاثة منافذ هي السمع والبصر والفؤاد، وقد تكررت هذه الثلاثة في أكثر من موضع في القرآن الكريم: ﴿ واللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَمعَ والأَبصَارَ والأفئِدَةَ لعلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[1] وهي مسؤولة أمام الله: ﴿ إنَّ السمعَ والبصرَ والفُؤادَ كلُّ أولئِكَ كانَ عنْهُ مَسْؤولاً ﴾[2].

وبمثل هذا التوجيه الإلهي انطلق العقل يتحمل مسؤوليته في رقي الإنسان ويواجه المتوافقات والمتناقضات ليصنع منها كلاً متكاملاً يبعث على الابتكار ويحمل على الإبداع ويساعد على إدراك الوشائج والروابط بين عناصر الكون.

جـ - بيان سلطان الإنسان:

أبان القرآن أن الإنسان خليفة الله في الأرض وسلطانه عليها من سلطان الله: ﴿ وإذْ قَالَ رَبُّكَ لِلملائِكَةِ إنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفةً ﴾[3]، ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الأَرْضِ ﴾[4]، فكل شيء مسخر له وتحت سلطان إرادته، يستخدمه في شؤونه ويستغله لنفعه، ولكن ذلك لا يحصل إلا باستعمال العقل وحسن التفكير: ﴿ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ البَحْرَ لِتَجْرِيَ الفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ، وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ، وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[5]، ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عدَدَ

---

(١) سورة النحل، آية: ٧٨.

(٢) سورة الإسراء، آية: ٣٦.

(٣) سورة البقرة، آية: ٣٠.

(٤) سورة الأنعام، آية: ١٦٥.

(٥) سورة الجاثية، آية: ١٣.

السِنِينَ والحِسَابَ ﴾[1]، ﴿ وَالخَيْلَ وَالبِغَالَ وَالحَمِيرَ لِتَرْكَبُوها وَزِينةً وَيَخْلُقُ ما لاَ تَعْلَمُونَ ﴾[2].

ولا شك أن إحساس الإنسان بهذا السلطان يدفعه إلى تحسين سياسته في التعامل مع عناصر الكون والاستفادة منها، وذلك تفجيرٌ للقوى الطبيعية الكامنة واستغلالٌ لمصادر الثروة والطاقة وتطبيقٌ عمليّ لحقيقة التسخير، وعن هذا تنتج كل أدوات الحضارة ووسائل المدنية، فتُشقّ الأرض ويُركَب البحر وتزدهر التجارة وتمارس الصناعات. ولذلك رأينا المهاجرين وهم من مكة ينشطون إلى الزراعة بعد أن كانوا في العصر الجاهلي يستنقصون بها أهل يثرب ويسمونهم لذلك أكّاريين وأنباطاً. ونشط إلى الصناعة الأنصار، وكانوا يرونها معيبة لا تليق بالعرب وإنما تليق باليهود.

د ـ تكريم الإنسان:

في القرآن آيات كثيرة تشهد بكرامة الإنسان وسموّه، يقول تعالى: ﴿ ولقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي البَرِّ وَالبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنا تَفْضِيلاً ﴾[3]، وعلى هذا الأساس لا يجوز امتهانُ الإنسان مهما كانت منزلته في البنية الاجتماعية، فإذا كان أميّة بن خلَف يعذّب عبده بلالاً. بمكة لإسلامه، ولا أحد يستطيع ردْعه أو الاعتراض عليه، لأنه عبده يتصرف فيه كيف يشاء، ولو أدّى به ذلك التصرف إلى إزهاق روحه أو إتلاف عضو من أعضائه، فإن الإسلام جعل للجماعة الإسلامية التدخل في ذلك وفي حالة ثبوت الإضرار بالعبد يعتق دون اعتبار لرأي سيده. ودعا إلى تحرير العبيد، وجعل تحريرهم كفارة لبعض كبائر الذنوب، وأعطى للعبد الحق الكامل في أن يكاتب مولاه: ﴿ والذينَ يَبْتَغُونَ

---

(1) سورة يونس، آية: ٥.

(2) سورة النحل، آية: ٨.

(3) سورة الإسراء، آية: ٧٠.

الكِتابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمتُمْ فِيهِمْ خَيْراً ﴾[1] وجعل تحرير الرقاب من مصارف الزكاة: ﴿ إِنَّمَا الصّدقاتُ للفقراءِ والمساكينِ والعاملينَ عليها والمؤلفةِ قلوبُهُمْ وفي الرقابِ والغارمينَ وفي سبيلِ اللَّهِ وابنِ السبيلِ فريضةً من اللَّهِ واللَّهُ عليمٌ حكيمٌ ﴾[2]، وضمن لأجل ذلك أيضاً حرْمة العقيدة للمواطنين في الدولة الإسلامية: ﴿ لا إكراهَ في الدِّينِ قد تَبيَّنَ الرُّشْدُ من الغيِّ ﴾[3]، فالناس لا يكرهون على الدخول في الإسلام بل يدخلونه عن إيمان وتصور واقتناع: ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَنْ في الأرضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً، أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤمِنِينَ ﴾[4]. أما ما كان من حروب إسلامية فقد كان للدفاع عن دين الله لا للعدوان: ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾[5]، وبجانب هذا فإن الإسلام منوط به تحقيق العدل في الأرض، وهو يعرض على الناس الدخول فيه لتحقيق العبودية لله، فإن دخلوا فذاك، وإلّا كان عليهم الدينونة لسلطان الإسلام ليتولى تحقيق حمايتهم وتحقيق العدل بينهم بشريعة الله، على أن يدفعوا مقابل ذلك مشاركة مالية كضريبة دفاعية هي الجزية. ولا شك أن شعور الإنسان بالمهانة مما يقتل الطموح فيه ويدفعه إلى الخمول والرضا بالدون، على حدّ قول المتنبي:

مَنْ يَهُنْ يَسْهُلِ الهَوانُ عَلَيْهِ … مَا لِجُرْحٍ بِمَيِّتٍ إيلامُ

وقد كان الخليفة عمر بن الخطاب وهو يجوس شوارع المدينة وأسواقها يستوقف الشاب الذي يراه يمشي مشية فيها تخاذل ومذلة ويخفقه بالدِّرة ويقول له: (ارفع رأسك ولا تفسد علينا ديننا).

وإذا امتلك كرامته أحسّ بمسؤوليته تجاه نفسه وأمته ودينه، وطمحت

---

(1) سورة النور، آية: ٣٣.
(2) سورة التوبة، آية: ٦٠.
(3) سورة البقرة، آية: ٢٥٦.
(4) سورة يونس، آية: ٩٩.
(5) سورة البقرة، آية: ١٩٠.

نفسه إلى تحقيق المجد، وبعُدت غاياته، واستطاع أن يبدي رأيه في ثقة وشجاعة وحرية لم يعرفها العالم إلاّ في ظل الإسلام، فهذا أحد أفراد الرعية يقوم لأمير المؤمنين عمر فيقول: (والله لو رأينا فيك إعوجاجاً لقومناك بسيوفنا). وذلك حين قال عمر في خطبته: (فإن رأيتم فيّ إعوجاجاً فقوّموني). وفي مناسبة أُخرى تقوم امرأة تعارضه في فكرة تحديد المهور بالقرآن: ﴿ وَإِنْ آتَيْتُمْ إِحدَاهُنَّ قِنْطَاراً فلاَ تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئاً ﴾[1]، فينزل على رأيها ويقول: (أخطأ عمر وأصابت امرأة). ويقول عمر في تعنيف واليه عمرو بن العاص: (متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟).

هـ ـ تمجيد التفكير والتدبّر:

إن كثيراً من الآيات القرآنية مبنيّة على تمجيد التفكير والتدبّر: ﴿ أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ القُرآنَ أَمْ عَلَى قُلوبٍ أَقْفَالُها ﴾[2]، وكان في عمومه إنما يوجه الخطاب لأولي الألباب وأُولي النُّهى، وللذين يتفكرون ويعقلون، إلى غير ذلك من الأوصاف الدالة على قيمة الفكر والتفكير، وقد عرض القرآن قضية التوحيد بطريقة تشحذُ الفكر وتضع العقل أمام مسؤولياته، وطرَحها في أسلوب جدليّ قائم على الحجة والبرهان، بل إن الإسلام جعل التفكير من العبادة التي يتقرب بها المؤمن إلى الله، وتفكير ساعة خير من عبادة سنة. ودخل رسول الله ﷺ على أصحابه في المسجد فوجد جماعة تقرأ القرآن وأخرى تتذاكر في أمور الدين وتناقش قضايا الحرام والحلال، فقال ما معناه: كلتا الجماعتين على خير، ولكن الجماعة الثانية أعمّ خيراً وأكثر فضلاً، وما ذلك إلاّ لأنها تستعمل عقلها وتستغل فكرها ولا تقف موقف الخمول والجمود.

ولقد كان لذلك الأسلوب القرآني أثر كبير في تكوين الحركة الفكرية العلمية بعد ذلك في المدينة المنورة، ولذلك كان الصحابة إذا حفظوا عشر

---

(١) سورة النساء، آية: ٢٠.

(٢) سورة محمد، آية: ٢٤.

آيات من القرآن لا يتجاوزونها إلى غيرها حتى يتفهموا مقاصدها ويعرفوا تأويلها وتفسيرها ويعملوا بما فيها. ومن ناحية أخرى أثر هذا الأسلوب القرآني في عقلياتهم ومنحهم نماذج حيّة لمواجهة القضايا ومناقشة الأمور.

و ـ تعريفهم بتواريخ الأمم السابقة:

فتح القرآن أعينهم على تواريخ الأمم السابقة كعاد وثمود وبني إسرائيل وغيرهم، وكشف لهم عن الصراع بين المادة والروح، وبين الحق والباطل، وبين الوثنية وعقائد التوحيد، فإن الآيات القرآنية زاخرة بالقصص الذي يدور حول هذا الموضوع، مع بيان مواطن العبرة ومكان الموعظة منه: ﴿ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ ﴾، وذلك ثقافة تاريخية دينية فكرية تغذّي العقل وتربّي النفس وترتقي بالفكر إلى آماد يمتزج فيها الماضي بالحاضر وتهيئه لفهم وظيفته في المستقبل.

ز ـ وصلهم بالعالم الغيبي:

وعلّمهم الإسلام بأن وراء هذا العالم المادي الواقع تحت مشاهدتهم، عالما آخر غيبيّا غير مشاهد، به نوعان من الأرواح، خيّر وشرّير، فأما الخيّر فهو عالم الملائكة، ومن صفاتهم نصر المؤمنين ومؤازرتهم وكتابة أعمالهم: ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إلى المَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾[1]، ﴿ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ المَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾[2]، ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ، كِرَاماً كَاتِبِينَ، يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾[3]. وأما الأرواح الشريرة، فهي الشياطين المطرودون من رحمة الله، وهم ينفثون غواياتهم فيمن ضل عن الصراط المستقيم: ﴿ وَإِذَا خَلَوْا إلى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ ﴾[4]، وقال ﷺ: «وإن الشيطان ليجري من أحدكم مجرى الدم»[5].

---

(١) سورة الأنفال، آية: ١٢.
(٢) سورة الأنفال، آية: ٩.
(٣) سورة الانفطار، آية: ١٠ ـ ١٢.
(٤) سورة البقرة، آية: ١٤.
(٥) رواه البخاري ومسلم.

وهناك عالم الجن، ومنهم مؤمنون وكافرون: ﴿ قُلْ أوحِيَ إِليَّ أَنَّهُ استمعَ نَفَرٌ مِنَ الجِنِّ ﴾[1].

وهذا التصور للعوالم الغيبية يجعل الإنسان يحسّ بأنه مخلوق ضئيل أمام قدرة الله الواسعة ويجعله يدخل في منافسة مع العوالم الأخرى في نيل رضا الله.

حـ ـ التنظيمات والتشريعات:

اشتمل القرآن على عديد من التشريعات السماوية التي تنظم حياة الفرد والجماعة وتعين على تكوين الأمة وإقامة الدولة، وهي أمور لا عهد للعرب في المدينة ولا خارجها بها، وهي نقلة كبيرة كان لها آثارها البعيدة في فكرهم وحياتهم، وقد استطاع الرسول ﷺ أن يؤسس بالمدينة حكومة قائمة على أساس هذه التشريعات، جمع فيها بين السلطتين الدينية والسياسية، وبعد تنظيمه لإدارة الدولة الجديدة وإقرار الأمن اتجه إلى توسيع حركة انتشار الإسلام خارج المدينة، فأرسل البعوث من الشخصيات الإسلامية إلى القبائل المختلفة في الجزيرة العربية لترسيخ مفاهيم الإسلام ومبادئه، كإرساله عتّاب بن أَسِيد والياً على مكة، ومن هنا نشأ نظام الإمارة في الإسلام.

وبعد وفاة الرسول ﷺ تأسّست الخلافة الراشدة، وتمت في عهدهم فتوحات كبيرة فأرسلوا الولاة إلى الأمصار من قادة الجند ومنحوهم سلطات إدراية وعسكرية، ودوِّنت الدواوين في عهد عمر وتولت المدينة مسؤولياتها الإدارية كاملة باعتبارها عاصمة للدولة الإسلامية المترامية الأطراف، وكان أبناؤها نواة لكل تلك التنظيمات.

ط ـ الدعوة إلى العلم:

كانت الدعوة إلى العلم وأنه نعمة أسبغها الله على الإنسان مما اقترنت

---

(١) سورة الجن، آية: ١.

به الآيات الأولى من القرآن: ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأكرمُ الَّذِي عَلَّمَ بالقَلمِ ، عَلَّمَ الإنسانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾[1]، كما تردد ذكر العلم والعلماء والإشادة بهم في غير ما آية: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوي الَّذينَ يَعلمونَ والَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾[2]، ﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدني عِلْماً ﴾[3]، ﴿ إنَّما يَخْشَىٰ اللَّهَ مِنْ عِبادِهِ العُلَمَاءُ ﴾[4]، كما تردد الحثّ على العلم في الأحاديث، قال ﷺ: «طلب العلم فريضة على كل مسلم»[5]، وقال: «من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سلك الله به طريقاً من طرق الجنة»[6]، «العلماء ورثة الأنبياء»[7]، وجعل مداد العلماء يفوق دماء الشهداء يوم القيامة.

وقد حمّل الإسلام أولئك العلماء أمانة القوامة على الدين الحنيف، وأعطاهم حق الاجتهاد فيما لم يَرد فيه نص من الكتاب أو السنة، وحينما بعث رسول الله ﷺ معاذ بن جبل إلى اليمن قال له: كيف تصنع إن عرض لك قضاءٌ؟ قال: أقضي بما في كتاب الله. قال: فإن لم يكن في كتاب الله؟ قال: فبسنة رسول الله ﷺ. قال: فإن لم يكن في سنة رسول الله؟ قال: اجتهد رأيي لا آلو. قال فضرب بيده في صدري، وقال: الحمد لله الذي وفّقَ رَسولَ رسولِ الله لما يرضاه رسولُ الله[8].

ونما الاجتهاد في عهد الخلفاء الراشدين ووضعت الأسس الأولى لمدرسة المدينة الفقهية التي كان من ثمرتها بعد ذلك الإمام مالك بن أنس رضي الله تعالى عنه.

ويلاحظ أن القرآن لم يستعمل كلمة علم بالمعنى الذي استعمل بعد

---

(١) سورة العلق، آية: ٣ ـ ٥.
(٢) سورة الزمر، آية: ٩.
(٣) سورة طه، آية: ١١٤.
(٤) سورة فاطر، آية: ٢٨.
(٥) رواه البيهقي في شعب الإيمان.
(٦) رواه الترمذي.
(٧) رواه ابن عدي في الكامل، وهو ضعيف.
(٨) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر ٢: ٥٥ طبع القاهرة.

ذلك والذي يقابل كلمة (Science) وإنما استعملها[1] فيما يبدو بمعنى المعرفة بأوسع معانيها، قال تعالى: ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾[2]، ﴿ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ العُمُرِ لكيْ لَا يَعلمَ بعدَ علمٍ شَيْئاً ﴾[3]، وهو بهذا المعنى يطلق على جميع المعارف الإنسانية، ويكون حينئذ مرادفاً لكلمة ثقافة، فمعرفة طرق الزراعة والتجارة وطرق كسب المال وغيرها كلها داخلة فيه، وقد ورد على لسان قارون: ﴿قال: إنَّما أوتيتُهُ عَلىٰ عِلْمٍ عِندِي ﴾[4]، ومع ذلك فإن القرآن أكثر ما يستعمل كلمة علم في المعرفة التي توصل إلى الهداية، وأحياناً يستعمله مرادفاً للحكمة: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقمانَ الحكمةَ ﴾[5]، ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وسُلَيْمانَ عِلْماً ﴾[6]، ﴿ ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الحِكْمَةِ ﴾[7]، ﴿ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بعدَ الَّذِي جاءَكَ مِنَ العِلْمِ ما لَكَ مِنَ اللَّهِ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾[8].

وقد سئل مالك: ما الحكمة قال: المعرفة بالدين والفقه فيه، والاتباع له.

* * *

والذي لا شك فيه أنه قامت في المدينة حركة علمية متعدّدة الجوانب ثرية الموارد والمصادر، وضعت الأسس الأولى للنهضة العلمية الإسلامية العامة بعد ذلك في مواطن العروبة، وكانت الحركة العلمية الأم التي تفرعت منها الحركات العلمية التي ظهرت عقبها في مكة والكوفة والبصرة وغيرها من المدن العربية، والمتتبع لهذه الحركة يستطيع أن يسجل الملاحظات التالية:

١ ـ **أنها نشأت مرتبطة بالقرآن**، على اعتبار أنه دائرة المعارف الكبرى التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها. تنزيل من حكيم حميد،

---

(١) فجر الإسلام ص ١٤٤.
(٢) سورة يوسف، آية: ٧٦.
(٣) سورة النحل، آية: ٧٠.
(٤) سورة القصص، آية: ٧٨.
(٥) سورة لقمان، آية: ١٢.
(٦) سورة النمل، آية: ١٥.
(٧) سورة الإسراء، آية: ٣٩.
(٨) سورة البقرة، آية: ١٢٠.

أخرج سعيد بن منصور عن ابن مسعود قال: من أراد العلم فعليه بالقرآن، فإن فيه خبر الأولين والآخرين[1]، (يعني أصول العلم). وأخرج البيهقي عن الحسن قال: أنزل الله مائة وأربعة كتب، أودع علومها أربعة منها: التوراة، والإنجيل، والزبور، والفرقان، ثم أودع علوم الثلاثة الفرقان[2]. وقال الكاتب الفرنسي الدكتور موريس: القرآن بمثابة ندوة علمية للعلماء، ومعجم لغة للغويين، وأجرومية لمن أراد تقويم لسانه، وكتاب عروض لمحب الشعر وتهذيب العواطف، و أسكلوبيديا (دائرة معارف) عامة للشرائع والقوانين[3]. وقال الدكتور بوسرت سميث في كتابه (حياة محمد): (من حسن الحظ الوحيد في التاريخ دون غيره أن محمداً أسّس في وقت واحد ثلاثة أشياء من عظائم الأمور وجلائل الأعمال، فإنه مؤسّس لأمة، وأمبراطورية، وديانة، مع أنه أميّ وقلما كان يقدر أن يقرأ أو يكتب[4]، ومع ذلك أتى بكتاب هو آية في البلاغة ودستور للشرائع وللصلاة وللدين في آن واحد)[5].

قالوا: وإن اشتمل القرآن على علوم لا يحيط بها علماً إلّا اللَّهُ ورسوله، فإنها ترجع في حقيقتها إلى ثلاثة علوم ـ كما قال ابن جرير ـ توحيد، وأخبار، وديانات. ولهذا كانت الفاتحة أم القرآن، لاشتمالها على الأقسام الثلاثة، وسورة الإخلاص ثلثه لاشتمالها على أحد الأقسام الثلاثة وهو التوحيد[6]، وقد عدد الكتاني أسماء بعض العلوم التي نشأت عن القرآن أو أشار إليها في آياته فذكر من ذلك عشرات من العلوم[7].

٢ ـ **أنها نشأت مرتبطة بالمسجد النبوي**، فلم يؤثر أن المسلمين الأوائل في المدينة أنشؤوا مدارس خاصة للعلم، إلّا ما نقل المقريزي عن الواقدي أن

---

(١) التراتيب الإدارية ٢: ١٦٩.
(٢) المرجع السابق.
(٣) المرجع السابق ٢: ١٨٣.
(٤) كذا، ولكن الرسول ﷺ كان أميًّا.
(٥) المرجع السابق.
(٦) المرجع السابق ٢: ١٧٦.
(٧) المرجع السابق ٢: ١٧١ ـ ١٧٦.

عبد الله بن أم مكتوم قدم مهاجراً إلى المدينة مع مصعَب بن عمير، وقيل: قدم بعد بدر بقليل، فنزل دار القرّاء[1]. ولكن المؤرخين في الواقع لم يتحدثوا بما فيه الكفاية عن هذه الدار، ولم ينصوا على تخصيصها للدراسة أو غيرها. ومن المحتمل أن تكون مقرّاً سكنياً للقرّاء. وعلى هذا فالمسجد هو المدرسة الأولى في الإسلام، فلم يكن مسجده ﷺ قاصراً على العبادة فقط ـ كما قلنا ـ بل كان يضطلع إلى جانب ذلك بكل المهمات الحيوية في الدولة الإسلامية الناشئة وعلى رأسها الدرس والتعليم، حيث كان الرسول ﷺ يعلم أصحابه أمور دينهم ودنياهم. وعن صفوان بن عسّال المرادي رضي الله عنه قال: أتيت النبي ﷺ وهو في المسجد متكىء على برد له أحمر، (فقلت له: يا رسول الله، إني جئت أطلب العلم، فقال: مرحباً بطالب العلم، إن طالب العلم تحفه الملائكة بأجنحتها، ثم يركب بعضهم بعضاً حتى يبلغوا السماء الدنيا من محبتهم لما يطلب، فما جئت تطلب؟ قال: قلت: يا رسول الله، لا أزال أسافر بين مكة والمدينة، فأفتني عن المسح على الخفين...)[2]. وقال الكتاني[3] نقلاً عن الإمام اليوسي: أما التعليم بصورة التدريس فأصله ما كان ﷺ يفعله في مجالسه مع أصحابه من تبيين الأحكام والحكم والحقائق وتفسير الآيات القرآنية وذكر فضائلها وخواصها وغير ذلك، وهم في ذلك مجتمعون عليه، فهذا تقرير وتبيين، قال تعالى: ﴿ لِتُبَيِّنَ للناسِ ما نُزِّلَ إلَيْهِمْ ﴾، وهذه حلقة العلم، ولم تزل حلق العلم على العلماء كذلك. وأخرج المروزي وابن أبي شيبة عن أبي معاوية الكندي قال: قدمت على عمر بالشام فسألني عن الناس، فقال: لعلّ الرجل يدخل المسجد كالبعير النافر، فإن رأى مجلس قومه ورأى من يعرفهم جلس إليهم، فقلت: لا، ولكنها مجالس شتى، يجلسون فيتعلمون الخير ويذكرونه، قال: لن تزالوا بخير ما دمتم كذلك.

---

(١) فجر الإسلام ص ١٦٥.

(٢) الترغيب والترهيب لزكي الدين عبد العظيم بن عبد القوي ١ : ٤٢.

(٣) التراتيب الإدارية ٢ : ٢١٨.

وكان بعض الصحابة يخلفون رسول الله ﷺ على مجلسه العلمي إذا قام إلى بيته أو بعض مصالحه، ومن أولئك الصحابة كان عبد الله بن رواحة، فقد ذكر الكتاني نقلاً عن شرح الإحياء: أن عبد الله بن رواحة كان يخلف رسول الله ﷺ بعد قيامه فيجمع الناس ويذكرهم الله ويفقههم فيما قال رسول الله ﷺ، فربما خرج عليهم رسول الله ﷺ وهم مجتمعون عنده، فيسكتون، فيقعد إليهم، ويأمرهم أن يأخذوا فيما كانوا فيه، ويقول رسول الله ﷺ: «بهذا أمِرت». ويروى نحو هذا عن معاذ بن جبل أيضاً.

وكانت أيضاً هناك بيوت المدراس اليهودية قبل جلاء اليهود لا تزال قائمة وفيها يتعلم الناس العبرية والعربية، يروي البلاذري[١]: أنه كان بالمدينة بعض اليهود قد علموا كتابة العربية، فكانوا يعلمونها الصبيان بالمدينة في الزمن الأول، فجاء الإسلام وفي الأوس والخزرج عدة يكتبون. وكان زيد بن ثابت يتعلم في مدراس «ماسكة»، فتعلم كتب اليهود في خمس عشرة ليلةً، حتى كان يعلم ما حرّفوا وبدّلوا[٢]، وأخرج ابن عساكر عن زيد بن ثابت قال: قال لي رسول الله ﷺ: إنها تأتيني كتب لا أحب أن يقرأها كل أحد، فهل تستطيع أن تتعلم السريانية؟ فقلت: نعم. فتلعمتها في سبعة عشر يوماً[٣].

أما أسرى بدى الذين علموا أبناء المسلمين بالمدينة القراءة والكتابة فإن المؤرخين لم يذكروا لنا أماكن تعليمهم، والغالب أنها كانت بالبيوت، ولا غرابة في ذلك فإن بيوت الأنصار كلها تحوّلت إلى بيوت لتعليم الدين وأصول العقيدة وتعاليم القرآن الكريم.

ويبدو أن الكتاتيب اتخذت في وقت مبكر بالمدينة، ففي كتاب

---

(١) فتوح البلدان، طبع أوروبا ص ٤٧١ وما بعدها.

(٢) التراتيب ١: ٢٠٤.

(٣) المرجع السابق.

الديات من صحيح البخاري أن أم سلمة بعثت إلى معلّم الكتّاب: أن ابعث إليّ غلماناً. وأسند البخاري[1] أيضاً إلى ابن عمر أنه كان يسلّم على الصبيان في المكتب. وينسب بعضهم تأسيس المكاتب إلى خلافة عمر رضي الله عنه، قالوا: وقبل ولاية عمر إنما كان يقرىء الرجل ابنته وأخاه الصغير، ويأخذ الكبير عن الكبير مفاهمة، لسيلان أفهامهم، فلما كثرت الفتوحات وأسلمت الأعاجم وأهل البوادي، وكثر الولدان، أمر عمر ببناء بيوت المكاتب، ونصب الرجال لتعليم الصبيان وتأديبهم[2].

وقد كان لهذه الحركة العلمية أثرها في تفشي القراءة والكتابة بين أفراد المجتمع المدني، فآيات القرآن كانت تكتب. ويتلوها من يعرف القراءة على من لم يعرف، وقد استخدم الرسول ﷺ بعضهم لكتابة القرآن، فكان أول من كتب له مقدمه المدينة أبيّ بن كعب الأنصاري، وزيد بن ثابت الأنصاري، كما كانا يكتبان له كتبه إلى الناس، وممن كتب له أيضاً: عثمان بن عفان، وشُرحبْيل بن حسَنة، وأبان بن سعيد، وخالد بن سعيد، والعلاء بن الحضرمي، وحنظلة بن الربيع، ومعاوية بن أبي سفيان.

وكانت أدوات الكتابة كالقلم والدواة معروفة على عهدهم، وأغلب ما كانوا يكتبون على عسيب السعف، وهو الأصل العريض من جريدة النخل، وعلى الألواح من أكتاف الغنم وغيرها من العظام الطاهرة والخِرَقِ والجلود. وفي البخاري لما نزلت آية: ﴿ لا يَستوي القاعدونَ من المؤمنينَ... ﴾ قال عليه الصلاة والسلام للبراء بن معرور: ادع لي زيداً ليجيء باللوح والدواة والكتف... إلخ. وروي أن عثمان بعث إلى أبيّ بن كعب بكتف شاة مكتوب عليها بعض قرآن ليصلح بعض حروفه[3]. وروي عن معاوية رضي الله عنه أنه كان بين يدي النبي ﷺ،

---

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد (باب السلام على الصبيان).

(٢) التراتيب ٢: ٢٩٣.

(٣) التراتيب الإدارية ٢: ٢٤٣.

فقال له: «ألِقْ: الدواة، وحرّف: القلم، وأقم الباء، وجرّ: السين، ولا تعور: الميم، وحسّن: الله، ومدّ: الرحمن، وجرّ: الرحيم» قال الكتاني: وهذا وإن لم تصح الرواية أنه عليه السلام كتب، فلا يبعد أن يرزق علم هذا، ويمنع الكتابة والقراءة[1].

٣ ـ **أن هذه الحركة كانت حركة أصيلة مستمدة من القرآن والحديث**، ليس فيها أي علم دخيل أو مترجم، ومع ذلك استطاعت أن تنهض وتتكامل خطوطها وعناصرها، ومعنى هذا أن النهضة العلمية الصحيحة في كل عصر يجب أن تعتمد على أصالة الأمة وخصائصها وإمكاناتها العقلية والفكرية وبغير هذا تضل وتتعثر مسيرتها ثم لا تزيد على أن تكون صدى للآخرين.

٤ ـ **أن نظرة هذه الحركة إلى العلم لم تكن نظرة مادية**، ولم تكن تجعل منه غاية أو صنماً يعبد، بل كانت تنظر إليه على أنه وسيلة لتحقيق غاية شريفة هي خدمة الإنسان وتحقيق إرادة الله فيه، ولذلك لم تفصل بينه وبين التربية، بل نظرت إليهما على أنهما صنوان لا يفترقان، وبهذا يتحول العلم نفسه إلى وسيلة تربوية عالية، يصقل العقل ويهذّب النفس ويعدّها لقبول شريعة الله على يقين وهداية واحتجاج. إن الأشياء المادية نفسها التي ينتجها العلم تصبح داخل هذه النظرة وسائل لتحقيق الغاية العظمى، من تمجيد الخالق وتكريم المخلوق.

٥ ـ **أن الصحابة رضوان الله عليهم، لم يكونوا على درجة واحدة من العلم**، بل كانوا يتفاضلون في ذلك، وتتباين منازلهم فيه تبايناً كبيراً، وقد جاء في الحديث: «إن مَثَل ما بعثني به الله من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً، فكان منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشبَ الكثير، وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله تعالى بها الناس فشربوا منها

---

(١) المرجع السابق. ١: ١٢٧.

وسقوا وزرعوا. وأصاب طائفة منها أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كـلأ... إلخ»[1]. ويقول مسروق، وهو أحد التابعين: لقد جالستُ أصحاب محمد ﷺ، فوجدتهم كالإخاذ[2]، فالإخاذ يُروي الرجل، والإخاذ يروي الرجلين، والإخاذ يروي العشرة، والإخاذ يروي المائة، والإخاذ لو نزل به أهل الأرض لأصدرهم[3].

وعلى كثرة الصحابة فإنهم جعلوا منهم ستة أو سبعة في الطبقة الأولى. وعشرين في الطبقة الثانية. ومائة وعشرين في الطبقة الثالثة[4]، ولكل واحد منهم ميزة قد يلتقي فيها مع آخر وقد يختلف: وهم كما قال البوصيري:

فكلهم من رسولِ اللّهِ ملتمسٌ فَيْضاً مِنَ البحرِ، أو وَبْلاً من الدِّيَمِ

فعمر بن الخطاب ـ مثلاً ـ لا نجد له كثيراً من الأقوال في تفسير القرآن، كما لا نجده مكثراً في جمع الحديث، ولكنّ له قوة فطرية في الحكم على الأشياء، وإصابةً في معرفة العدل والظلم، وفراسة لا تكاد تخطىء، يقول أبو ذر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله وضع الحق على لسان عمر يقول فيه»[5]، ويقول في حديث آخر: «إن يكن في أمتي محدَّثون فعُمَر»[6]، وعلى نقيض ذلك كان ابنه عبد الله، فهو رجل جمّاع للحديث كثير التحرّي لألفاظه غير مقدم على تفسير أو فتوى. ولخّص بعضهم شخصيته العلمية فقال: كثرة الجمع ودقة النقل، لا كثرة الاستنباط ولا وفرة الفتوى.

٦ ـ أنه لم يصحب هذه الحركة تدوين لعلوم معينة إلّا ما كان من كتابة القرآن، أو الكتب التي كان يبعثها النبي ﷺ أو ما يكون من عهود، ثم

---

(١) رواه البخاري ومسلم.
(٢) الإخاذ: الغدير.
(٣) طبقات ابن سعد ٢: ١٠٤.
(٤) الإصابة ١: ٩.
(٥) رواه أحمد والترمذي، وصححه.
(٦) رواه مسلم وأحمد.

الرسائل المتبادلة بين الخلفاء والقواد والولاة، ثم جمع القرآن في عهد أبي بكر، ثم مرة ثانية في عهد عثمان، ونشر في الأمصار في صورته المجموعة، وإلّا ما كان من إذن رسول الله ﷺ لعبد الله بن عمرو بن العاص بكتابة الحديث، قال أبو هريرة: ما أجد من أصحاب رسول الله ﷺ أكثر حديثاً مني، إلّا ما كان من عبد الله بن عمرو، فإنه كان يكتب. وقال عبد الله بن عمرو: كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله ﷺ أريد حفظه. ومعنى هذا أنه كان لا يكتب إلّا ما يريد حفظه، أما غير ذلك فلم يكن يكتبه، ولهذا لم تحتو صحيفته[1] المعروفة بالصادقة على أحاديث كثيرة. والتدوين بصفة عامة في الثقافة العربية، إنما بدأ بعد ذلك في العصر الأموي وازدهر في منتصف القرن الثاني الهجري.

٧ ـ **أن هذه الحركة لم تكن مقصورة على الرجال، بل اشترك فيها حتى النساء** وعلى رأسهن أمهات المؤمنين، وكان من أبرزهن: عائشة وأم سلمة. وكانتا تقرآن ولا تكتبان[2]، وحفصة. ومن غيرهن: أم أيمن، وأم عطية، وعاتكة بنت زيد، والخنساء، وقتيلة بنت النضر.

وقد كان ﷺ يخرج إلى النساء فيعظهن ويعلّمهن، فعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ خرج ـ أي إلى النساء ـ ومعه بلال، فظن أنه لم يسمع، فوعظهن وأمرهن بالصدقة[3]. وعن أبي سعيد الخدري: (قالت النساء للنبي ﷺ: غلبنا عليك الرجال، فاجعل لنا يوماً من نفسك، فوعدهنّ يوماً لقيهن فيه، فوعظهن وأمرهن)[4]. وفي رواية «فقال: موعدكن بيت فلانة، فأتاهنّ فحدّثهن»[5].

(١) طبقات ابن سعد ٧: ٤٩١، وتقييد العلم للخطيب البغدادي ص ٦٥ طبعة يوسف العش.
(٢) فتوح البلدان للبلاذري ص ٤٥٨.
(٣) البخاري ١: ١٩٢.
(٤) البخاري ١: ١٩٥.
(٥) فتح الباري ١: ١٩٦.

ي ـ رفع مكانة المعلم:

أعطى الإسلام للمعلم مكانة عظيمة لا نظير لها، وجعله من ورثة الأنبياء، وأوجب إكرامه وإجلاله، وقد كان المعلم الأكبر وأستاذ الحياة الأعظم هو رسول الله ﷺ، فكان الصحابة يجلونه ويعظمونه لكونه الرسول ولكونه المعلم، حتى أنهم يقبلون يده ورجله ﷺ، روى أبو داوود[1] عن زارع بن عامر قال: (لما قدمنا المدينة، فجعلنا نتبادر من رواحلنا، فنقبل يد رسول الله ﷺ ورجله)، وكان زيد بن ثابت الأنصاري من أعلم علماء الصحابة، كتب للنبي الوحي، وأتقن حفظ القرآن، وتعلم العبرية والسريانية، واشترك في جمع القرآن بعد ذلك، وكان أعلم الناس بالفرائض، ولذلك جلس منه الناس مجلس الطلب، يأخذون من علمه الغزير، واستحق منهم لذلك كلّ تكريم وتبجيل، ونرى حبر الأمة ابن عباس يأخذ بركاب دابته، فعن عمار بن أبي عمار، أن زيد بن ثابت ركب يوماً فأخذ ابن عباس بركابه، فقال: تنحَّ يا ابن عم رسول الله، فقال ابن عباس: هكذا أُمِرْنا أن نفعل لعلمائنا وكبرائنا، وفي رواية: إنا أُمِرنا أن نأخذ بركاب معلمينا[2].
وكان رسول الله ﷺ يأمر المتعلمين برعاية حق معلميهم والتواضع لهم، فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «تعلموا العلم، وتعلموا للعلم السكينة والوقار، وتواضعوا لمن تتعلمون منه»[3].

ك ـ الاستفادة من حضارة البلاد المفتوحة:

رغم أصالة النهضة العلمية والثقافية بصفة عامة فإن المنافذ لم تغلق أمام الاستفادة مما عند الأمم المفتوحة من نظم وعلوم وأساليب في الحكم ما لم يتصادم ذلك مع التشريع الإسلامي، فالحكمة ضالة المؤمن، يلتقطها أينما

---

(١) رواه أبو داود في كتاب الأدب (باب في قُبلة الرِّجل).
(٢) التراتيب الإدارية ٢: ٤٣٦.
(٣) رواه الطبراني في الأوسط.

وجدها، وينتفع بها، وقد كان ضمن تلك البلاد المفتوحة بلاد الفرس والروم وهما الدولتان العظيمتان اللتان كانتا في ذلك الحين تمثلان أقصى ما وصلت إليه الحضارة الإنسانية في العالم، وفيهما كان مخزون العلوم ومستودع الثقافة، فلا غرو أن نرى ابن الخطاب يستفيد ببعض خبرات أهل البلدين في تطوير بعض شؤون الدولة، ويستعين بهم في دواوين الأموال ودواوين الجند وغيرها من الدواوين، قال أبو يوسف: لما أراد عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه أن يمسح السواد، أرسل إلى حذيفة بن اليمان، أن ابعث إليّ بدهقان من (جوخي)، وبعث إلى عثمان بن حنيف: أن أبعث إليّ بدهقان من قِبَل العراق، فبعث إليه كل واحد منهما بواحد ومعه ترجمان من أهل الحيرة، فلما قدموا على عمر، قال للدهقانين، كيف كنتم تؤدون الأعاجم في أرضهم؟[١].

ولما جاء مال من البحرين عظيم قدره خمسمائة ألف درهم، وعزم على تفرقته على المسلمين، قال رجل: يا أمير المؤمنين، إني قد رأيت هؤلاء الأعاجم يدوّنون ديواناً يعطون الناس عليه. قالوا: فدوّن عمر الديوان[٢].

وقد كان المهاجرون والأنصار ـ وهم سكان المدينة الإسلامية ـ على رأس كل جيش من جيوش الفتوح، يختلطون بسكان البلاد المفتوحة فيشاهدون ما فيها من مظاهر الحضارة، ويجـ.ون منها المغانم والسبي، فيحملون بذلك أدوات الحضارة ووسائلها إلى المدينة، وكل ذلك كان ينعكس على الحياة الاجتماعية في المدينة بجميع مظاهرها ومنها الثقافة والحضارة.

ومن المنجزات الحضارية في المجال الحربي على عهد عمر، إنشاء المناظير، وهي قباب تبنى على رؤوس الجبال العالية بين كل بلد وآخر، بحيث يتقارب بعضها وتُشرِف على بعض، ويقام فيها حرّاس يوقدون النيران عندما يرون إقبال العدوّ من جهتهم، فيوقد حرّاس المناظير الذين يلونهم كذلك، وهكذا، حتى يصل الخبر إلى المدينة، أو الثغر أو المَسْلحة، في زمن قصير،

(١) الخراج ـ لأبي يوسف يعقوب بن إبراهيم ص ٣٨ ـ المطبعة السلفية ومكتبتها بمصر.
(٢) فتوح البلدان ص ٤٤٠.

فيسرعون إلى إمداد الجهة التي أقبل منها العدوّ، وذلك أن معاوية كتب إلى عمر بعد موت أخيه يزيد، يصف له سوء حال الشام، فكتب إليه في حرمة حصونها وترتيب المقاتلة فيها، وإقامة الحرس على مناظيرها واتخاذ المـواقيد لها[1].

- ٢ -

وبعد هذه الجولة القصيرة للبحث في الجذور الثقافية للمجتمع المدني في ظل الدعوة الإسلامية يمكن أن نقول: إن كل ما تمّ من إنجازات علمية وحضارية وعسكرية وتنظيمية خلال صدر الإسلام بخاصة، وما بعده بعامة إلى يوم الدين، إنمـا يؤول في حقيقته إلى هـذه الجذور الثقـافية الأصيلة للمجتمع المدني الأول، ويعود الفضل فيه إلى صاحب الـرسالـة محمد بن عبد الله ﷺ وصحبه الكرام رضوان الله عليهم، الذين حملوا بعده الأمـانة بإخلاص وملؤوا بعلمهم وسلوكهم الأرض عدلاً وهدىً ونوراً.

ومن النظم التي سنت في هذا العصر ما يلي:

أ ـ الخـلافـة:

وهي لغة النيابة والوكالة، ومنها قوله تعالى: ﴿ يا داودُ إنَّا جَعَلْناكَ خليفةً في الأرضِ فَاحْكُمْ بينَ النَّاسِ بِالحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الهَوَى ﴾[2]، وقوله: ﴿ وإذْ قالَ رَبُّكَ للملائِكَةِ إنِّي جَاعِلٌ فِي الأرضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفسِدُ فيها وَيَسْفِكُ الدماء ﴾[3]، فـداود وآدم ينوبان عن الله في هداية الناس وإنذارهم بما أمر به، وقد أنكر أبو بكر على من سماه خليفة الله وقال: لست خليفة الله ولكني خليفة رسول الله[4].

(١) التراتيب ٢ : ٢٨٣.

(٢) سورة ص، آية: ٢٦.

(٣) سورة البقرة، آية: ٣٠.

(٤) الخلافة لتوماس أرنولد ص ٣١ مطبعة دار التضامن بغداد ١٩٦١م.

والخلافة اصطلاحاً: هي رياسة عامة في أمور الدين والدنيا نيابة عن النبي، وعقدها[1] لمن يقوم بها في الأمة واجبٌ بالإجماع، فالخليفة على هذا الاعتبار هو الرئيس الأعلى للأمة في الحرب والإدارة.

وقد كانت نشأة الخلافة في المدينة أمراً ضرورياً بعد وفاة الرسول ﷺ. واجتمعت كلمة المسلمين بعد نقاش طويل في السقيفة على خلافة أبي بكر، وكان حكم العرب بوساطة خليفة، وانضواؤهم تحت لواء حكومة واحدة ودينونتهم لها: حدثاً عظيماً في داخل الجزيرة.

ب ـ الإمارة:

كان نظام الإمارة معروفاً منذ الجاهلية، وأخذ به الرسول ﷺ حين اتجه إلى توسيع حركة انتشار الإسلام خارج المدينة، فكان يرسل رجاله إلى القبائل لتعليمهم أمور الدين ويضيف إليهم مسؤولية جمع الزكاة والصدقات والإمارة على الصلاة، وحين توسعت الدولة في عهد الخلفاء تكفل قادة الجند بالإمارة عسكرياً وإدارياً، وبذلك أخذت الإمارة مفهوماً جديداً، وتعدّدت الإمارات بتعدّد البلاد المفتوحة، بحيث زادت في عهد عمر عشر ولايات، كان من أهمها: ولاية البصرة وولاية الكوفة وولاية مصر وولاية فلسطين.

جـ ـ إنشاء الدواوين:

سبق أن أشرنا أن هذا التنظيم الإداري تم في عهد عمر، وقد كانت البلاد إدارياً مربوطة بالمدينة المنورة عاصمة الخلافة، وكان عمر قد أبقى الدواوين التي كانت موجودة في البلاد المفتوحة في العراق وفارس والشام ومصر، تعمل على حالها الذي وجدها عليه، وأبقى لها لغاتها المحلية[2]، ولم يتم تعريبها إلّا في عهد الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان وابنه الوليد. لأنه لم يكن للعرب بهذا التنظيم الإداري عهد.

---

(١) الأحكام السلطانية لأبي الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي ص ٥ مطبعة البابي الحلبي ١٩٦٠م.

(٢) المرجع السابق ص ٢٠٢.

د ـ النظم المالية:

وتشمل عدة أمور منها:

١ ـ **الجزية**: هي الخراج المضروب على رؤوس أهل الذمة[١]، وقد فرضت عليهم استناداً إلى ما جاء في القرآن والسنة والإجماع[٢]، وقد كانت معروفة قبل الإسلام، فرضها الروم والفرس، وفرضها عمر على غير المسلمين في العراق وفارس والشام ومصر، ولها نظام خاص ليس هنا محل شرحه.

٢ ـ **الخراج**: هو ما يخرج من غلة الأرض، وفي اصطلاح الفقهاء هو ما وضع على رقاب الأرضين من حقوق تؤدى عنها[٣]، وأول من فرضها في الإسلام الرسول ﷺ على أهل هجر، وفعل عمر ذلك في فتحه العراق لأن أكثرها فتح عنوة.

٣ ـ **عشور التجارة**: جمع عُشر، وهو مقدار الضريبة المفروضة على أموال أهل الذمة المعدّة للتجارة، والمنقولة من دار الحرب إلى دار الإسلام وبالعكس، وقد حدّد عمر الضرائب المفروضة على التجارة بقوله: (خذوا من المسلم ربع العشر ومن الذمي نصف العشر، ومن الحربي العشْر)[٤].

٤ ـ **الزكاة**: هي الركن الثالث في الإسلام، وقد فرضت للفقراء على الأغنياء، كما جاءت مفصلة في كتب الفقه، تطهيراً لهم وتنميةً لأموالهم وسدّاً لحاجة المعوزين، وكانت أول أمرها اختيارية استناداً إلى قوله تعالى: ﴿ والَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ للسائلِ والمَحْرُومِ ﴾[٥]، ثم أصبحت إجبارية لقوله تعالى: ﴿ خُذْ مِنْ أموالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾[٦]، وحدّد لها الإسلام ثمانية مصارف فقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا الصَّدقَاتُ لِلفُقَرَاءِ والمساكينِ والعاملينَ عليها والمؤلَّفةِ قلوبُهُمْ وفِي الرِقَابِ والغارمينَ

---

(١) الخراج ص ٦٩.

(٢) المرجع السابق.

(٣) الأحكام السلطانية ص ٤١.

(٤) الخراج ص ١٣٥.

(٥) سورة المعارج، آية: ٢٤ ـ ٢٥.

(٦) سورة التوبة، آية: ١٠٣.

وفي سبيلِ اللَّهِ وابنِ السبيلِ، فريضةً من اللَّهِ واللَّهُ عليمٌ حكيمٌ ﴾[1].

٥ ـ **الفيء**: هو ما يحصل عليه المسلمون دون قتال، ﴿ ما أفاءَ اللَّهُ على رسولِهِ مِنْ أهلِ القُرى فللهِ وللرسولِ ولِذي القُربى واليَتامى والمَساكينِ وابنِ السبيلِ ﴾[2] وقد كان منه أموال بني النضير.

٦ ـ **الغنيمة**: ما حصل عليها المسلمون عن طريق الحرب، وطريقة قسمها أشار إليها القرآن فقال: ﴿ وَاعْلَموا أنّ مَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيءٍ فأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وللرسولِ وَلِذي القُربى واليَتامى والمَسَاكِينِ وابنِ السَبِيلِ ﴾[3].

وكل هذه المصادر المالية للدولة الإسلامية ثابتة شرعاً، ولم تفرض في عهد الخلفاء الراشدين أية ضريبة غير شرعية، وذلك لشدة حرصهم على الاقتداء بالرسول ﷺ وتنفيذ الشريعة المطهرة، ولعدم وجود ضرورة تدعو إلى سنّ شيء من ذلك القبيل، وإلاّ فإن الأزمات التي تحلّ بالأمة تبيح للإمام أن يأخذ من الأموال ما تقوم به شؤون المسلمين.

هـ ـ النظم العسكرية:

١ ـ **الجيش**: لم تعرف البلاد العربية ومنها يثرب في الجاهلية، الجيش النظامي، بل إن مهمة القتال والدفاع كانت منوطة بجميع أفراد القبيلة، فإذا انتهت المهمة عاد الجميع إلى أعمالهم، ولما جاء الإسلام واشتد الأذى على المسلمين: ﴿ أُذِنَ لِلذينَ يُقاتَلونَ بأنَّهم ظُلِموا وإنَّ اللَّهَ على نصرِهِمْ لَقَديرٌ، الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ بِغيرِ حَقٍّ إلاّ أنْ يَقُولُوا رَبُّنا اللَّهُ، ولولا دفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بعضَهُمْ ببعضٍ لَهُدِّمَتْ صوامعُ وبِيَعٌ وصَلَواتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيها اسمُ اللَّهِ كَثِيراً ﴾[4]، وقد كان الجيش الإسلامي أيضاً قائماً على الانتداب وقت الحاجة ولكن الرسول ﷺ اهتم بتعليم أصحابه فنون القتال وتدريبهم على استعمال السلاح، ولم يكن

---

(١) سورة التوبة، آية: ٦٠.
(٢) سورة الحشر، آية: ٧.
(٣) سورة الأنفال، آية: ٤١.
(٤) سورة الحج، آية: ٣٩ ـ ٤٠.

يكره أحداً على القتال: «لا يَخرجنّ معنا إلا راغب في الجهاد»[1]، ثم وضع عمر نظاماً للجيش يتفق مع خطة الفتوحات الواسعة، ففرض التجنيد الإجباري، لما رآه من ركون الناس إلى الدّعة والتشاغل بالمال، فكان يرسل إلى ولاته: (لا تدَعُو أحداً إلّا وجهتموه إليّ، والعجلَ العجلَ)[2]، وأنشأ تبعاً لذلك ديوان الجند الذي كان يسجل فيه أسماء المقاتلين ووجهتهم ومقدار أعطياتهم وأرزاقهم، وتبعاً لذلك أيضاً أنشأ بيت المال لتوفير الأموال اللازمة لنفقات الفتوح. وأقام لهذه الجيوش المعسكرات كالبصرة والكوفة والفسطاط، وكذلك فعل بعده عثمان، غير أنه لم يكره أحداً في الحروب البحرية.

٢ ـ **الشرطة**: تتمثل النواة الأولى لها في نظام العَسس الذي استُحدث في عصر الخلفاء الراشدين، وذلك على عهد أبي بكر، فقد عيّن عبد الله بن مسعود أميراً على العَسس[3]، وكان عمر كثيراً ما يتولى ذلك بنفسه ومعه مولاه، وربما صحب معه عبد الرحمن بن عوف، وفي البصرة وكّلَ في عهده أبو موسى الأشعري إلى أربعمائة منهم حراسة بيت المال والسجن. أما علي بن أبي طالب فقد ولى شرطة الكوفة قيس بن سعد الأنصاري[4].

و ـ النظام القضائي:

للقضاء معانٍ كثيرة، منها: الحكم، وعليه جاء قوله تعالى: ﴿فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ﴾[5]. واصطلاحاً: هو منصب الفصل بين الناس في الخصومات، حسماً للتداعي وقطعاً للنزاع، ولم يعرف الجاهليون النظام القضائي بالمعنى الذي عرفه الإسلاميون، ولكنه على كل حال يشترك معه في الغرض العام والدوافع، وإن اختلف في الأسلوب والوسائل والأدوات، كانت

(١) طبقات ابن سعد ٢: ٢٧.
(٢) الطبري ٤: ٨٢.
(٣) الإسلام في حضارته ونظمه الإدارية والسياسية، لأنور رفاعي ص ١٤٨.
(٤) النظم العربية والإسلامية لليوزبكي ص ١٤٨.
(٥) سورة طه، آية: ٧٢.

شريعتهم مستمدة من الأعراف والتقاليد، والقاضي هو شيخ القبيلة، أو الكاهن والعرّاف، أو أي شخص عرف بينهم بالحكمة وسداد الرأي، وكان المتخاصمون غير ملتزمين بتنفيذ الأحكام[1]، وقد رأينا نموذجاً من ذلك في حكومة عمرو بن امرىء القيس في حرب سُمير بيثرب ورفض مالك بن العجلان لها. فلما جاء الإسلام تولى الرسول ﷺ في المدينة الفصل في الخصومات التي قد تنشب بين المسلمين أو بينهم وبين اليهود، وقد نصت معاهدة الموادعة على ذلك حيث جاء فيها: «وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده، فإن مرده إلى الله ورسوله»[2]، وكان ينيب عنه أحياناً أحد أصحابه، كما كان يرسل بعضهم لحسم الخصومات، ويوصيهم ويرسم لهم قواعد الحكم، فلما قلّد علياً قضاء اليمن قال له: (إذا جلس بين يديك الخصمان فلا تقضين حتى تسمع من الآخر كما سمعت من الأول، فإنه أَحْرى أن يتبين لك القضاء)[3]، كما علمهم بقوله: «البيِّنة على من ادّعى واليمين على من أنكر»[4]، وقد اشتهر من قضاته ﷺ ستة هم: علي بن أبي طالب، وعمر بن الخطاب، وعبد الله بن مسعود، وزيد بن ثابت، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر. ولكنهم لم يكونوا يحملون لقب (قاض) وإن قضوا بين الناس.

وأسند القضاء في عهد أبي بكر إلى عمر بن الخطاب. ثم ازدادت القضايا في عهد عمر بحكم الاختلاط والفتوحات، وتعذر على الخليفة النظر في القضايا بنفسه، وكذلك الولاة، ففصل عمر بين القضاء والولاية، فولّى أبا الدرداء قضاء المدينة، وشريحاً الكندي قضاء الكوفة، وعثمان بن أبي العاص

---

(١) فجر الإسلام ص ٢٧٧.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ١: ٥٠٤.

(٣) النظم الإسلامية - نشأتها وتطورها - لصبحي الصالح ص ٣١٩ دار العلم للملايين بيروت - ١٩٦٥م.

(٤) المرجع السابق. ص ٣٢٠.

قضاء مصر، وأبا موسى الأشعري قضاء البصرة[1]، وتعتبر رسالة عمر إلى أبي موسى الأشعري من أهم الرسائل القضائية وهذا نصها: (بسم الله الرحمن الرحيم: أما بعد: فإن القضاء فريضة محكمة، وسنة متبعة. فافهم إذا أدلي إليك: فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له، وآس بين الناس في وجهك ومجلسك وعدلك، حتى لا يطمع شريف في حيفك، ولا ييأس ضعيف في عدلك، البيِّنة على من ادّعى واليمين على من أنكر، والصلح جائز بين المسلمين، إلّا صلحاً أحلّ حراماً أو حرّم حلالاً، ولا يمنعْك قضاء قضيته أمس، فراجعت فيه اليوم عقلك، وهُديت فيه لرشدك: أن ترجع إلى الحق. فإن الحق قديم، ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل، الفهمَ الفهمَ فيما تلجلج في صدرك مما ليس في كتاب ولا سنة، ثم اعرف الأمثال والأشباه وقس الأمور بنظائرها، واجعل لمن ادّعى حقاً أو بيِّنة أمراً ينتهي إليه، فإن أحضر بيِّنة أخذت له بحقه، وإلّا استحالت القضية عليه، فإن ذلك أنفى للشك وأجلى للعمى، وإياك والقلق والضجر والتأفف بالخصوم، فإن استقرار الحق في مواطن الحكم يعظم الله به الأجر، ويحسن به الذكر)[2]

وكانت مصادر التشريع في القضاء تعود إلى أربعة أشياء هي: القرآن ـ السنة النبوية ـ الإجماع ـ القياس.

وكان القضاة يجلسون إلى القضاء في المسجد طول عهد الرسول ﷺ وعهد الراشدين، ثم اتخذ الأمويون بعد ذلك له دوراً خاصة.

هذه هي أهم التنظيمات الحيوية التي كان منبعها الشريعة الإسلامية في المدينة المنورة، وهي تدل في عمومها على مستوى حضاري عال ليس للمدينة ولا للجزيرة العربية، بل ولا للإنسانية جميعاً عهْدٌ به.

---

(١) الطبري ٤: ٢٦٣.

(٢) الأحكام السلطانية ص ٧١.

- ٣ -

وقبل أن ننهي الحديث عن التأثير الثقافي للدعوة الإسلامية في المدينة المنورة يهمنا إبداء الملاحظتين التاليتين:

أ - أن هذا المستوى الحضاري والثقافي انعكس أيضاً على وسائل الحياة ومظاهرها المادية في المدينة، وتقدم أهلها أشواطاً بعيدة في الزراعة والتجارة والصناعة وغيرها واتخذوا في بيوتهم ومجالسهم ومآكلهم ومشاربهم من الآنية والفرش وغيرها كل ما عرفوه في البلاد المفتوحة، يصلهم تارة عن طريق الغنائم، وتارة عن طريق الشراء، وقد سبق أن ذكرنا أن[1] الرسول ﷺ قدم المدينة وفيها كثير من الصنائع كالخياطة والخرازة والصباغة والحدادة والنجارة وغيرها[2]، وكان ﷺ يشرب في قدح من زجاج وآخر من فخار بعثهما إليه النجاشي، وعن عائشة أنه كان لا يجلس في بيت مظلم إلا أسرج له فيه سراج[3]، وفي السنة التاسعة والعشرين للهجرة عرف الناس في عهد عثمان الرحى الهوائية بالرياح المحدَثة المتردّدة في الصناديق المتعدّدة[4]، واتسعت معرفتهم للطب إلى درجة تركيب الأسنان والأنوف من الذهب، وروى أبو نعيم في الطب عن عمر قال: دخلت على النبي ﷺ وحبشي يغمز ظهره، قلت: ما هذا يا رسول الله؟ قال: إن الناقة تقحّمت البارحة. وفي رواية: إن الناقة أتعبتني[5]. وما هذا إلّا نوع من العلاج الطبيعي، فكذلك يفعل الناس الآن لتخفيف بعض الآلام. ومن ناحية أخرى انتفت الكهانة والخرافات وربطت الأشياء بأسبابها الطبيعية المعقولة، وتحرّر الفكر من كل عبودية فانطلق حراً يبدع ويبتكر ويحقّق الكمالات.

ب - أن هذه الثقافة تختلف في كثير من مناهجها ووسائلها وغاياتها عن الثقافة

---

(١) انظر الكتاب الثالث من هذه السلسلة.
(٢) التراتيب ٢: ٦٢.
(٣) المرجع السابق. ١: ٨٦.
(٤) المرجع السابق. ٢: ٦٦.
(٥) المرجع السابق. ١: ٣٧.

الجاهلية، لأنها منطلقة من خلال تصور إسلامي لله والكون والحياة، فالله هو الواحد الأحد الفرد الصمد الذي يعلم السر وأخفى واليه الأمر كله. والكون بكل ما فيه مسخر لخدمة الإنسان وواقع تحت تصرفه، أبدعه الله بحكمته وأخضعه لقوانين ثابتة يمكن الاستفادة والانتفاع بنظامها، والحياة معبر للآخرة، على الإنسان أن يعمرها بكل نافع ومفيد ويجعل منها مزرعة لدار الخلد ورضا الله، ثم عليه أن يؤمن بالقضاء والقدر لتطمئن نفسه، وتستقر روحه في رحلة الحياة الشاقة، فلا تزلزله حوادث ولا تفلّ عزيمته نكبات، بل هو يتخذ الأسباب ويتوقع النتيجة ويؤمن أن ما كان مقدّر وغيره لن يكون.

ثانيًا - في الجانب الأدبي

أحدث الإسلام بمبادئه الجديدة هجرة داخلية في نفوس عرب المدينة وكل من دان به - كما أشرنا - صنعت منهم أناساً آخرين، مختلفين تماماً عما كانوا عليه في الجاهلية، وكانت وسيلته الأولى في ذلك القرآن الكريم، هذه المعجزة البيانية الخالدة، التي استحوذ فنّها القولي على نفوسهم، واستثار دهشتهم وإعجابهم، وبهر في الوقت نفسه عقولهم بمضمونه، وغاص إلى أعماقهم فهزها بسحره وجماله وقوة أسره وتأثيره، وما تضمنه من فكر وحكمة، ثم انفتحوا على العالم الخارجي كما انفتحوا على دواخلهم، فكان من ذلك كله مزاجاً جديداً هو الإنسان العربي بالمدينة في ظل الإسلام.

ووجدت اللغة العربية نفسها بهذا أمام تجربة جديدة لم يكن لها بها سابق عهد، بحيث لم تعد مجرد لغة عواطف ووسيلة تفنن وإبداع، بل أصبحت لغة مسؤولة عن تبليغ رسالة ربانية ومعانٍ سامية، وجسراً للإصلاح الديني والاجتماعي، وصلة بين السماء والأرض، تقدم الغذاء للأرواح والنفع للعقول، والمتعة للقلوب، وهي بلا شك مهمة شاقة وصعبة لا تقوى عليها جميع اللغات، ولكن الله اصطفاها لهذه المهمة، وهيأ لها من الخصائص ما يجعلها قادرة على أداء هذه الأمانة، ومن المؤكد أن حركة القبائل وائتلاف بعضها قبيل الإسلام كان مما ترك آثاراً عميقة في حياة هذه اللغة، وعمل على خلق اللغة الأدبية الموحدة في مجال الأدب، واللغة المصفاة في مجال الحديث اليومي، فلما جاء الإسلام كانت اللغة العربية على هذا الأساس من النضج

بمكان، بحيث استطاعت أن تنهض بمهمة الوحي وتقوم بها خير قيام، فكان القرآن بها في أعلى ذروات الإعجاز، وكان مفخرة العرب في لغتهم على مدى الأجيال، إذ لم يتح لأمة من الأمم كتاب مثله، بلاغة وتأثيراً وحُسْنَ عرضٍ لقضايا التوحيد والتشريع، وقد أخذت روعته بمجامع قلوب أهل اللسن والفصاحة من أنصاره وأعدائه على حد سواء، وتحداهم بأن يأتوا بشيء من مثله فلم يستطيعوا مجتمعين ولا منفردين وعجزوا عن معارضته عجزاً تاماً. وذهلوا لبلاغته وأقروا له بالتفوق.

ومما يذكره الرواة في ذلك قول الوليد بن المغيرة لقومه من قريش حين سمع القرآن (والله لقد سمعت من محمد كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن، وإنّ له لحلاوة، وإن عليه لطَلاوةً، وإنّ أعلاه لَمثمرٌ وإن أسفله لَمغدق)[1].

وكان من آثار القرآن أن أكد للغة الأدبية المشتركة أن تسود وتتقلص مقابل ذلك اللهجات الخاصة بالقبائل المختلفة، كما طوّع اللغة العربية للتعبير عن الوحي الرباني والمبادىء الإسلامية الجديدة، ورافق ذلك ظهورُ كثيرٍ من الألفاظ، واختفاءُ بعض الألفاظ وبخاصة ما كان منها حوشياً أو غريباً. وكذلك كان للحديث تأثيره، فقد أوتي ﷺ جوامع الكلم، وفي ذلك يقول الجاحظ إنه: (لم يتكلم إلا بكلام قد حُفّ بالعصمة وشُيّد بالتأييد ويُسّر بالتوفيق)[2]، ورغم أن الحديث لم يقصد منه إلى الإعجاز فإنه بلغ مبلغاً كبيراً من الروعة والبلاغة، ومن نماذجه المروية باللفظ قوله ﷺ للأنصار: «أما والله ما علمتكم إلا لتقلّون عند الطمع، وتكثرون عند الفزع»، وقوله: «المسلمون تتكافأ دماؤهم، ويسعي بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم»، وقوله: «المستشار مؤتمن»، وقوله: «إن أحبكم إليّ وأقربكم مني مجالس يوم القيامة

---

(١) سيرة ابن هشام ١: ٢٧٠.

(٢) البيان والتبيين ٢: ١٧.

أحاسنُكم أخلاقاً، الموطؤون أكنافاً، الذين يألفون ويؤلفون، وإن أبغضكم إليّ وأبعدكم مني مجالس يوم القيامة الثرثارون المتفيهقون» وقوله: «لا تجن يمينك على شمالك»، وقوله: «رحم الله عبداً قال خيراً فغنم، أو سكت فسلم»، وقوله: «يقول ابن آدم: مالي مالي، وإنما لك من مالك ما أكلت فأفنيت، أو لبستَ فأبليت، أو وهبت فأمضيت»، وقوله: «حصِّنوا أموالكم بالزكاة، وداووا مرضاكم بالصدقة»، وقوله: «من ذبّ عن لحم أخيه بظهر الغيب كان حقاً على الله أن يحرِّم لحمه على النار»[1]، وقد جرت بعض أقواله ﷺ مجرى الأمثال، واستوحاها الأدباء في شعرهم ونثرهم، ومن ذلك[2]: يا خيلَ الله اركبي ـ مات حتف أنفه ـ لا تنتطح فيه عَنْزان ـ الآن حمي الوطيس[3] ـ كل الصيد في جوف الفَرا ـ هُدنة على دَخَن، وجماعة على أقذاء ـ لا يُلْسَع المؤمن من جُحرٍ مرّتين ـ إن المنبتّ لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى ـ إياكم وخضراء الدمن ـ الناس كإبل مائة لا تجد فيها راحلة.

فالحركة الأدبية في صدر الإسلام ـ في الواقع ـ كانت مقدّمة للأدب العربي كله في عصوره التالية وبخاصة في عصر بني أمية، وهي في الوقت نفسه نتيجة للمؤثرات التي ذكرنا، من قرآنٍ وحديث، وتحوّلٍ فكري واجتماعي وهجرة نفسية داخل الذات، ومغايرة شاملة لكل المفاهيم الجاهلية. ولم يكن تأثير الإسلام على هذا النحو محصوراً على الحياة الأدبية بالمدينة وحدها، وإن بدت آثاره الأولى فيها، بل كان لكل الجزيرة العربية من تأثيره نصيب. ثم امتد ذلك التأثير مع الفتوح فدخل كل بلد دخله الإسلام وغلبت عليه لغة الضاد. ونستطيع أن نجمل تلك الآثار فيما يلي:

* * *

---

(١) رواه الإمام أحمد والطبراني.

(٢) البيان والتبيين ٢: ١٥.

(٣) الوطيس: التنّور.

أ ـ تغير في المهمة الأدبية:

لقد بدأ الأدب العربي منذ تنزلت الآيات الأولى من القرآن: طوراً جديداً، وشقت له الدعوة الإسلامية مدارجه الطامحة، وحدّدت له مسالكه ومساراته المتوثبة، وبذلك استوثقت العلاقة ما بين الأدب والدين في هذا العصر، وواكب كل منهما الآخر، فالإسلام كان يرى من حقه أن يفرض مبادئه ومفاهيمه على كل نشاط فني من حوله وعلى رأس ذلك جميعاً الأدب، لأنه الوسيلة الفنية الأولى في الأمة العربية، عليه دارت حياتها وقامت تحركاتها، وعلى هذا يجب أن تستغل هذه القوة الفاعلة لنشر مبادىء الدعوة وتوعية الناس بالفكرة الإسلامية وكل ما يساعد على بناء المجتمع الإنساني السليم ومحاربة عوامل التنافر والفرقة، وليس الأدب في نظرها أُلْهِيّة تتلهى بها طبقة خاصة من الناس، ولا ترفاً ذهنيّاً يستمتع به فريق من القادرين عليه، ولا معرضاً لإثارة العواطف أو وسيلة لقتل الفراغ، إنه هذه القوة النفسية الهائلة التي تجندها الجماعة في سبيل غاياتها ومُثُلها، والمادة الحيّة التي تسخّر لخدمة الناس جميعاً، فكان على الذين يريدون القول أن يلتزموا هذه المُثُل، وأن يستهدفوا هذه الغايات، وإلّا صمتوا، وليس هذا نوعاً من الإلزام بقدر ما هو اقتناع داخلي بوجوب توظيف القدرات القولية والفعلية في بناء المجتمع الصالح، وهي غاية يتطلع إليها كل ذي عقل ناضج وتفكير سليم، إن إطلاق العنان لكل ناعق ليتكلم على هواه دون وعي بالمسؤولية، وفتح الباب أمام مصراعيه ليقول كما يشاء دون ضبط أو انضباط يعتبر مهانة للأدب واحتقاراً لشأنه، وهو وضع غير مقبول في عرف العقلاء، وليس هذا الموقف من الأدب بدعاً في حياة الجماعة الإسلامية، وفي استجابتها للتطورات الفكرية لأن الدين الإسلامي كان في واقعه أسلوباً من أساليب الفكر ونمطاً من أنماط السلوك، فكان لا بدّ له أن يترك آثاره في الحياة الفنّية بصفة تلقائية، لأنها تعبير عن منازع النفس وتطلعات الروح وخلجات الوجدان.

ولا شك أن الأدب من خلال هذه المهمة التي أسندها له الإسلام

يتحول إلى قوة فاعلة في نطاق من حقائق الدين وغاياته النفسية والاجتماعية، ومن هذا المنطلق نرى عمر رضي الله تعالى عنه يحذر الشعراء من التشبيب بالنساء ويتوعد من يفعل ذلك بالجلد[1]، ومنع رواية الشعر الذي يثير الأحقاد والضغائن بين القبائل، وهنا قد يقول بعضهم: إن في هذا تضييق على الفن وحَجْر على الملكات ، والجواب أن الحجر على الملكات الفاسدة واجب يمليه الحزم ويدفع إليه الحفاظ على سلامة الجماعة، وخير للأمة ألف مرة أن تصون كيانها وتضمن سلامتها من أن تسمح تحت ستار الحرية الفنية لما يعكر صفوها وينحدر بأخلاقها أو يؤثر على وحدتها ويبعثر كيانها، إن الكلمة موقف، والموقف فعل يؤاخذ عليه وتتخذ إزاؤه القرارات، ولا تعفَى الكلمة من المسؤولية إلاّ في حالات فقدان التوازن وانعدام الإدراك.

ب ـ تغيّر القيمة:

جاء الإسلام دعوة وثورة، قلبت المفاهيم السائدة، وغيرت المثل الرديئة، وأقام مكان كل ذلك عقيدة وسلوكاً ونظام حياة، وكان تقويمه لجميع الحركات والأنشطة على أساس قربها أو بعدها من هذه المفاهيم الجديدة التي رسمها، ولعل من حسن حظ الأدب بالذات أن كان الإسلام في صورته التعبيرية حركة أدبية معجزة، فالقرآن تحدى الخلق ببيانه ونسقه الأدبي الرائع، والحديث النبوي كان أيضاً فنّاً رفيعاً من القول ـ كما أشرنا قبل قليل ـ فإذا ذكر الأدب في صدر الإسلام ذكر معه أنه الإطار الذي انسكبت في داخله الفكرة الإسلامية، والأداة التي عبرت عن جوهرها ومنازعها الوجدانية، في أسلوب يحقّق المنفعة ويقصد إلى جمال اللفظ ورشاقة العبارة ووضوح التصوير، ويهدف إلى الإبقاء على الأصالة الأدبية العميقة. وهكذا (نرى أن القرآن الكريم وأحاديث الرسول، وهما أول المنابع التي استقى منها المسلمون حياتهم في كل مجالاتها العلمية والفنية والخلقية، وفي كل مسالكها الحيوية

---

(١) الأغاني ٤: ٤٥٨.

والعلمية، لم يكونا يؤكدان قيمة الأدب تأكيداً نظرياً فحسب، وإنما كانا كذلك يقومان عليه، ويتمثلان به، ويجعلان منه صورةً لهما وتعبيراً عنهما)[1].

فالأدب ذو قيمة كبرى في نظر الإسلام على هذا النحو، ولكنه يجعل هذه القيمة منوطةً بمقدار وفائه بالمهمة الموكولة إليه، فحين كان حسان يدافع بشعره عن الرسول ﷺ ويذبّ عن الإسلام كان شعره ذا قيمة كبيرة في نظر الجماعة الإسلامية، وكان النبي يقول له مستزيداً: «اهجهم ومعك جبريل روح القدس، والق أبا بكر يعلمك تلك الهنات»[2]، وحين قال شعراً يثير العصبية ويوقظ الفتنة في عهد عمر، أمسك عمر بأذنه يجره إليه ويقول له: (أرغاء كرغاء البعير)[3]. وبين هذين الموقفين تتجلى الصلة بين قيمة الأدب ومهمته في الحياة الإسلامية، فالمقياس هو مدى ارتباطه وعلاقته بالدين سواء من ناحية تمثيل المبادىء التي نادى بها أم امتداحها والدعوة إليها، ولا ينظر إليه من الزاوية الفنية فحسب. فإنما الأدب وسيلة إلى غاية شريفة تتفق مع المبادىء التي نادى بها الإسلام وانضوت تحتها الجماعة الجديدة المؤمنة، وكل أدب لا يحقّق هذه الغاية فهو أدب مرفوض ليس له قيمة في ميزان الإسلام. علماً بأن الجمال مطلب أساسي في التعبير لم يتنازل عنه الإسلام بل اعتبره أساساً للأدب الرفيع ومجالاً لتباري الملكات، وتحدى القرآن بجماله وروعته وأسلوبه المصقول المحكم جميع الأجيال ولا يزال.

جـ - انتقال الأهمية الأدبية إلى المدينة ومكة:

ظلت البيئة الرعوية طيلة العصر الجاهلي هي الرائدة في الشعر، ومنها كان جميع أصحاب المعلقات، كامرىء القيس وزهير والنابغة وطرفة، وهي الرائدة في النثر أيضاً، فاشتهر الخطباء منهم، كأكثم بن صيفي، وأكثر ما نقل

---

(١) المجتمعات الإسلامية في القرن الأول ص ٣٢٣.
(٢) العمدة لابن رشيق ١ : ١٢ والحديث أخرجه الشيخان.
(٣) الأغاني ٤ : ١٤٤ دار الكتب.

إلينا من حكم وأمثال ووصايا إنما هو من هذه البيئة، وكانت المدينة رغم شهرة شعرائها وريادتها في فن النقائض واحتلالها بحسّانها مكانةً شعرية في الأسواق وبين الأحياء العربية، لم تستطع مصاولةَ أبناء البيئة الرعوية مصاولةَ النّد للنّد، وإن تفوقت عليهم في بعض الأحيان. أما مكة فإنها لم تكن في الشعر ولا في النثر ذات مكانة في الجاهلية، وإنما برزت في مجالات أخرى من مجالات الحياة، وقد ظلت الدراسات الأدبية تولي البيئة الرعوية جلّ اهتمامها وتوقّرها وتُشِيد بها دون غيرها من البيئات، ولم يتسع صدرها لدراسة الأدب اليثربي دراسة مستأنية واثقة، وقد حاولت في هذه الدراسة أن أردّ للمدينة شيئاً من اعتبارها الذي أضاعته الأجيال، وأحسبني أنني استطعت بما قدّمت أن أثبت أن للمدينة في العصر الجاهلي مكانة أدبية راقية. أما في صدر الإسلام فإن الباحث لا يحتاج إلى كثير من الجهد ليقرر أن ميزان القوى الأدبية قد انعكس تماماً، وأن المدينة بالإسلام كسبت كل شيء، فقد أصبحت هي محور الحركة وقطب الرحى الذي تدور حوله الأحداث، وتتركز فيه جميع أوجه النشاط في الجزيرة العربية، فكما أنها غدت مركزاً للدعوة الإسلامية ومقرّاً لدولة الخلافة، غدت أيضاً مستقرّاً للشعر والشعراء والنثر والناثرين، فلا شاعر ذو قيمة إلّا فيها، ولا خطيبَ أو كاتبَ إلّا منها، وبرز اسم حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك من الأنصار، وعبد الله بن جحش وأخوه أبو أحمد عبد بن جحش من المهاجرين وغيرهم من الشعراء والشاعرات: معالمَ هاديةً في الطريق، ومناراتٍ سامقة للشعر الرفيع، وبرز اسم رسول الله ﷺ وأسماء خلفائه الراشدين، يختطون للناس سبل الخطابة والكتابة والحوار الأدبي كأروع ما يكون، وقبل كل هذا وبعده ما كان بين أيديهم من قرآن جلّت آياته وعظمت كلماته، وتقاصرت الهمم عن محاكاته.

وفي مكة أيضاً برز شعراء مثل عبد الله بن الزبعري، وضرار بن الخطاب، وأبي سفيان بن الحارث، وهبيرة بن أبي وهب، يعارضون الإسلام

وينالون بشعرهم من أتباعه، بعد أن لم تكن مكة شيئاً مذكوراً في دنيا الشعر في الجاهلية.

واتجهت الأنظار كلها إلى هذه الحركة المؤيدة أو المناهضة للإسلام، وقلّ كل اهتمام بغيرها، في الوقت الذي مات فيه جُلّ من كان ذا شأن أدبي مذكور في البادية، وتقلص ظل الأدب فيها. فالمدينة وحدها في صدر الإسلام ـ وتشركها إلى حد ما معارضة مكة ـ هي الرائدة وهي التي تحتل مكان الصدراة في الحياة الأدبية، وغيرُها تابع مقلد متأثر، لا يلقى من يهتم بشعره أو نثره، ولا يجد من يصغي إليه.

د ـ ظهور مجموعة من الشاعرات:

لم نظفر أثناء دراستنا للعصر الجاهلي بالمدينة بسوى شاعرة واحدة يهودية هي سارة القرظية، وكان شعرها الذي ظفرنا به قليلاً لا يساعد على تكوين فكرة معينة، أما الأوس والخزرج فقد ذكرنا أنه فيما وصلنا من تاريخهم لم يكن بينهم شاعرات، وكذا في صدر الإسلام، ومع ذلك وُجد من بين سكان المدينة شاعراتٌ رثَوا القتلى من المسلمين، وبكوا من استُشهد منهم بكاءاً مرّاً، فمن كان هؤلاء الشاعرات؟. إنهن في الواقع مهاجرات من مكة، وقد اقتصر شعرهن على غرض واحد هو الرثاء، ولم يتناولن غيره من الأغراض، وإذا كان شعرهن في بكاء الموتى لم تظهر فيه النزعة الدينية بدرجة بارزة، فإن في مثل هذه المواقف يفقد الناس ولا سيما المرأة، توازنهم إلا من رحم ربك. ومن أولئك الشاعرات: هند بنت أثاثة بن عبد المطلب، ومن شعرها ترثي عبيدة بن الحارث بن المطلب، وكان قد قطعت رجله في مبارزته مع عتبة بن ربيعة في معركة بدر ومات بالصفراء[1]:

لقد ضُمِّن الصفراءَ مجداً وسؤددا   وحلماً أصيلاً وافر اللبِّ والعقل[2]

---

(١) الصفراء: وادٍ في طريق العائد من بدر إلى المدينة، ولا يزال معروفاً بهذا الاسم إلى اليوم.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام: ٤١ ـ ٤٢.

عبيدةَ فابكيه لأضيافِ غربةٍ وأرملةٍ تَهوي لأشعثَ كالجذْلِ[1]
وبكّيه للأقوام في كل شَتْوةٍ إذا احمرَّ آفاقُ السماءِ من المَحْلِ
وبكّيه للأيتام، والريحُ زَفْزَفٌ وتشبيب قدر طالما أزبدت تَغْلي[2]
فإن تصبح النيران قد مات ضوؤها فقد كان يذكيهن بالحطب الجزْل
لِطارق ليلٍ، أو لملتمس القِرى ومستنبح أضحى لديه على رِسْل

ورغم أن ابن هشام عقب على هذه الأبيات بقوله: (وأكثر أهل العلم بالشعر ينكرها لهند)[3]، إلاّ أن الدكتور الجبوري يرجح نسبتها إليها[4]، ولا مانع من ذلك، فدواعي الوضع تكاد تكون مفقودة، وابن هشام بالغ في الإنكار على ابن إسحاق.

ووقفت هند بنت عتبة على صخرة مشرفة في معركة أحد ترتجز متشفية بمصاب المسلمين:

نحن جزيناكم بيوم بدر والحرب بعد الحرب ذات سُعر

فأجابتها هند بنت أثاثة[5]:

خَزيتِ في بدر وبعد بدر يا بنت وقّاعٍ عظيم الكفر[6]
صبَّحكِ الله غداة الفجر مِلْهاشِميّين الطوالِ الزُّهْرِ
بكل قطّاعٍ حسامٍ يفري حمزةُ ليثي، وعليٌّ صقري
إذ رام شيبٌ وأبوكِ غدري فخضّبا منه ضواحي النحر[7]
ونذْرُكِ السوءَ فشرُّ نذْرِ

قال ابن هشام بعدها: (تركنا منها ثلاثة أبيات أقذعت فيها). وهي تشير

(١) الأشعث: المتغير، الجذل: أصل الشجرة، تصفه بالقوة والثبات.

(٢) الزفزف: الريح السريعة الشديدة. التشبيب: إيقاد النار تحت القدر.

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ٢: ٤٢.

(٤) شعر المخضرمين للدكتور يحيى الجبوري ص ١٠٨، منشورات مكتبة النهضة ـ بغداد ـ الطبعة الأولى ١٩٦٤م.

(٥) السيرة النبوية لابن هشام ٢: ٩١ ـ ٩٢.

(٦) وقّاع: كثير الوقوع في الدنايا.

(٧) شيب: أرادت شيبة، فرخّمته في غير النداء.

هنا إلى شيبة بن ربيعة بن عبد شمس عم هند بنت عتبة، وأبيها عتبة، فقد قطع عتبة رجل عبيدة بن الحارث، فحمل عليه حمزة وعليّ وقتلاه، وحملا عبيدة إلى عريش رسول الله ﷺ، وحديثها هنا يؤيد أن الأبيات اللامية السابقة لها أيضاً، فهي تواصل ذكره باكية أو مفاخرة.

وبكت هند أيضاً رسول الله ﷺ فيمن بكاه حين وفاته، فقالت توجه الكلام إلى فاطمة:

أشاب ذؤابتي وأذلّ ركني بكاؤكِ فاطمَ الميْتَ الفقيدا

وقالت في رثائه أيضاً[1]:

ألا يا عين بكّي لا تملّي فقد بكر النعيُّ بمن هويتُ

وشاعرة أُخرى هي صفيّة بنت عبد المطلب، عمة الرسول ﷺ، وأم الزبير بن العوام[2]، وأخت حمزة بن عبد المطلب، وكانت شاعرة رقيقة مرهفة الحس قاصرة على الرثاء أيضاً، وهو لون يتناسب في الغالب مع طبيعة النساء، لما فطرن عليه من سرعة الاستجابة للمصائب والأحداث. وفي معركة أحد أُصيبت في أخيها أسد الله حمزة، حيث قتله الأعداء ومثلوا به، فقطعوا أذنيه وجدعوا أنفه، وبقرت هند بنت عتبة بطنه واستخرجت كبده فلاكتها ولم تسغها، وفعلت به ذلك انتقاماً من موقفه في معركة بدر، وقد تأثر رسول الله ﷺ وقال: «لولا أن تحزن صفية ويكون سنّة من بعدي، لتركته حتى يكون في بطون السباع وحواصل الطير»[3]، ثم دفنه في بطن الوادي. فقالت صفية تبكيه وتتفجع عليه[4]:

أسائلةٌ أصحابَ أُحْدٍ مخافةً بناتُ أبي من أعجمٍ وخبيرِ

فقال الخبير: إن حمزةَ قد ثوى وزيرُ رسول الله خيرُ وزيرِ

---

(١) طبقات ابن سعد ٢: ١٩٧.

(٢) نسب قريش لأبي عبد الله المصعب بن عبد الله الزبيري ص ٢٠ طبع ليفي بروفنسال دار المعارف ـ مصر.

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ٢: ٩٥.

(٤) المرجع السابق ٢: ١٦٧.

دعـاه إلَه الحق ذو العـرش دعـوةً إلى جـنـةٍ يحيـى بهـا وسـرور
فـوالله لا أنسـاك مـا هبّت الصبـا بكـاءً وحزنـاً: محضـري ومسيـري
عـلى أسدِ الله الـذي كان مِـدْرهاً يـذود عن الإسـلام كـلَّ كفـور
فيا ليت شلوى عند ذاك وأعظُمي لـدى أضبُـع تعتـادني ونُسـور
أقـولُ وقـدْ أعـلَى النعيَّ عشيـرتي جـزى اللَّهُ خيـراً من أخ ونصـير
فـذلـك مـا كنـا نُـرجِّي ونـرتجي لحمـزة يـوم الحشـر خـير مصـير

وأثر الإسلام ظاهر في هذه القطعة في كل الأبيات، فهي مؤمنة بالله وبرسول الله وباليوم الآخر وبالجهاد في سبيل الله وذود كل كفور عنه.

وقالت ترثي الرسول ﷺ مخاطبة ابنته فاطمة:

أفـاطـم بـكّـي ولا تـسـأمـي بـصبحـكِ مـا طلع الـكـوكب

ومن شاعراتهن أيضاً نُعْم بنت سعيد، امرأة شماس بن عثمان، قالت تبكي زوجها شماساً وكان ممن أصيب يوم أحد[1]:

يا عينُ جودي بفيض غير إبساس عـلى كـريم من الفـتيان أبّـاس[2]
صعْبِ البـديهـة، ميمـونٍ نقيبتُـه حمّـالِ ألـويـةٍ، ركّـابِ أفـراس[3]
أقـولُ لمّـا أتى النـاعي لـه جـزعـاً أودى الجوادُ، وأودى المطعمُ الكاسي
وقلتُ لمـا خَلَتْ مـنـه مجـالسُـه لا يُبعِـد الله عنـا قُـرْب شمّـاسٍ

فأجابها أخوها أبو الحكم بن سعيد بن يربوع يعزيها فقال:

اقنَيْ حيـاءَك في سِتْرٍ وفي كـرمٍ فـإنمـا كـان شمّـاسٌ من النـاس
لا تقتـلي النفسَ إذ حـانت مـنيّتُهُ في طـاعةِ الله يـوم الروع والبـاس
قد كان حمزة ليثَ الله فاصـطبري فـذاق يـومئـذ من كـأس شمّـاس

(١) المرجع السابق ٢: ١٦٨.
(٢) الإبساس بالكسرة: مسح ضرع الناقة لتدر، استعارت ذلك للدمع الفائض بغير تكلف، والأَباس بالفتح: الشديد الذي يغلب غيره، ويروى (لبّاس)، أي كثير لبس أدوات الحرب.
(٣) البديهة: أول الرأي والأمر. ميمون النقيبة: مسعود الفعال.

ويلاحظ أن الطابع الإسلامي في أبيات أخيها أظهر، وقد يكون ذلك راجعاً للفرق بين التفجع والتعزية.

هـ ـ اختلاف مواقف الأدباء تجاه الإسلام:

علمنا أن الحركة الأدبية بجميع أنواعها وفنونها كانت تعتمل بالمدينة أو بينها وبين مكة، ذلك أن المدينة أصبحت تمثل مركز الثقل في الجزيرة العربية كلها ومتجه الأنظار جميعاً، وكان القرآن يتنزل فيبهر الناس ببيانه، والأحاديث النبوية يقولها الرسول فلا تلبث أن تتناقلها الركبان، وكذلك ما كان يصدر عنه من خطب ووصايا وتوجيهات، فهل سار الشعراء والخطباء في أرجاء الجزيرة على هذا النهج الأدبي الجديد؟. وهل انسجم فنّهم مع المضمون الفكري الحديث الذي جاءت به الدعوة الإسلامية؟.

إن مواقف الأدباء كانت ـ في الواقع ـ تبعاً لموقعهم الديني من الدعوة الإسلامية نفسها.

فمنهم الذين خالط الإيمان قلوبهم ومازج الإسلام ببشاشته نفوسهم، فانطلقوا يؤيدون الدعوة ويذبّون عنها ويذودون عن صاحب الرسالة، ويمثل هذه المجموعة أدباء المدينة وعلى رأسهم حسان وابن رواحة وكعب بن مالك من الشعراء. وثابت بن قيس وغيره من الخطباء.

ومنهم من كفر وعاند وحارب الدعوة وصاحب الدعوة، وأطلق لسانه في هجاء المسلمين والنيل منهم، ويمثل هذه الجماعة الكافرة أدباء مكة ومن ناصرهم، وعلى رأسهم ابن الزبعرَى وضرار بن الخطاب وأبو سفيان بن الحارث من الشعراء. والنضر بن الحارث وأبو جهل، وأبو سفيان بن حرب وسهيل بن عمرو من الخطباء.

ومنهم من كان من البادية، لم يسلم أو أسلم ولم يتعمق الإسلام قلبه، فوقف لا لَهُ ولا عليه، كأن الأمر لا يعنيه، أو كأنه كان ينتظر نتيجة الصراع،

لينضم بعد ذلك إلى الفريق الغالب، وليس هذا الموقف بمستغرب من أهل البادية، فهم كذلك في كل أمر على مرّ العصور. ومن هؤلاء: متمّم بن نويرة، وأبو محْجن الثقفي، والحطيئة، والشماخ وأخواه مزرّد، وجَزْءُ، وأبو خراش وأبو ذؤيب، الهذليّان[1].

وشبت الحروب بين المدينة ومكة ومن والاها، وبين المدينة واليهود أيضاً، وقامت تبعاً لذلك حرب أدبية كبرى بين شعراء هؤلاء الفرقاء وخطبائهم، كأنما هم بذلك يسايرون تلك الحروب المادية، ويهيئون لها ويُشيدون بها وبأبطالها، وكما كانت أدوات الحروب المادية متشابهة متناقضة، فكذلك كانت فنون هذا الأدب المتحارب متشابهة متناقضة، يلقى بعضه نظيره متحدياً عنيداً، يثبت له أو يهزمه، فالفخر يلقاه فخر، والهجاء ينقضه هجاء، والحماسة تصطدم بنظيرتها، وهكذا تتلاقى الفنون وتعترك المعاني من أجل المبدأ والموقف، والعقيدة.

أما الحرب النثرية فإن تاريخ الأدب لم يحتفظ لنا منها بشيء له قيمة، غير أننا نفترض أنه كانت بين المدينة ومكة مقاولات ومشانآت نثرية طويلة، عن طريق المواجهة واللقاءات تارة وعن طريق الخطابة في المجامع تارة أخرى، ونستطيع أن نتعرف إلى ذلك مما كان يحدث في مكة نفسها بين المسلمين والمشركين، قبل هجرة المسلمين إلى المدينة، فإن ما كان يحدث بين مكة والمدينة لا بدّ أن يكون على ذلك المنوال.

ومن ذلك أن أبا جهل كان آذى الرسول ﷺ فلما علم عمه حمزة ـ وكان راجعاً من قنص له ـ جاء المسجد، حتى إذا قابل أبا جهل ضربه بقوس كانت معه فشجّ بها رأسه شجة[2] منكرة، ثم قال: أتشتمهُ وأنا على دينه أقول ما يقول؟. فرُدَّ ذلك عليَّ إن استطعت. فقامت رجال من مخزوم ـ قوم أبي

---

(١) شعر المخضرمين ص ٥ نقلاً عن المستشرق كارلو نالينو.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ١: ٢٩٢.

جهل - إلى حمزة، فقال أبو جهل: دعوا أبا عمارة، فإنني والله قد سببتُ ابن أخيه سبّاً قبيحاً.

إذن كانت هذه المشادات التي تقع بين المسلمين والمشركين في مكة مشادات قبيحة، أو هي كذلك من طرف المشركين على الأقل.

ورغم أن النضر بن الحارث وقف خطيباً في قريش ذات مرة يقول:

(يا معشر قريش، إنه والله قد نزل بكم أمر ما أتيتم له بحيلة بعد، قد كان محمد فيكم غلاماً حدثاً أرضاكم فيكم، وأصدقكم حديثاً، وأعظمكم أمانة، حتى إذا رأيتم في صُدغيه الشيبَ، وجاءكم بما جاءكم به، قلتم: ساحرٌ.. لا والله ما هو بساحر، لقد رأينا السّحرة ونفثهم وعُقَدهم. وقلتم كاهن.. لا والله ما هو بكاهن، قد رأينا الكهنة وتخالجُهُمْ، وسمعنا سجعهم. وقلتم: شاعر.. والله ما هو بشاعر، قد رأينا الشعر، وسمعنا أصنافَه كلَّها: هَزَجه ورجَزه. وقلتم مجنون.. لا والله ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون، فما هو بخنْقه ولا وسوسته ولا تخليطه. يا معشر قريش، فانظروا في شأنكم، فإنه والله لقد نزل بكم أمر عظيم)[1].

رغم هذا العقل الراجح الذي يبدو من خلال هذه الخطبة فإنه لم يكفّ عن مناهضة الدعوة، بل نراه يستعمل نثره وشعره في محاربتها، حتى استحق أن يُهدِر رسول الله ﷺ دمه ويقتله دون تردد حين ظفر به في أسرى بدر.

وقد أشار عمر بن الخطاب على رسول الله ﷺ بنزع ثنيتيْ سهيل بن عمرو حين أسر في بدر حتى يفقد القدرة على الخطابة ضد المسلمين، قال عمر: يا رسول الله دعني أنزع ثنيتيْ سهيل بن عمرو، ويَدْلَعُ لسانُه، فلا يقوم عليك خطيباً في مواطن أبداً. فقال له رسول الله ﷺ: «لا أمثل فيمثّل الله بي وإن كنتُ نبياً»[2].

(١) المرجع السابق ٢: ٢٩٥ - ٣٠٠.

(٢) المرجع السابق ١: ٦٤٩، ويدلع: يخرج.

وفي المدينة كانوا يخطبون في الحضّ على مواجهة الأعداء، ويذكرون ما هم عليه من شرك وضلالة ومحاربة لله ورسوله، وأنهم لذلك يجب حربهم وقتالهم والذبّ عن دين الله، فنشأت لذلك خطب سياسية وأخرى دينية تشرح مبادىء الإسلام، وكان على رأسها خطب الرسول ﷺ. وكان ثابت بن قيس خطيب الرسول الذي يواجه به بعض خطباء الوفود.

ويمكننا أن نعتبر هذه الحرب النثرية لوناً من ألوان النقائض الأدبية وإن لم تكن شعراً، فإن النقائض في أدوارها الأولى كما يقول الأستاذ أحمد الشايب[١] إنما بدأت نثراً، بل ويجعل النثر أكثر ملاءمة لها من الشعر، لاتساع النثر إلى الحجاج والبرهنة والتدليل. وإن كان الشعر أكثر سيرورة وأقوى تأثيراً وأعظم انتشاراً.

هذا ما كان من شأن الحرب النثرية. أما الحرب الشعرية فإن كتب التاريخ وكتب السيرة بالذات احتفظت لنا منها بقدر كبير، وبخاصة سيرة ابن هشام، والكامل لابن الأثير، وتاريخ الأمم والملوك للطبري، ومروج الذهب للمسعودي، والأخبار الطوال لابن قتيبة، وفتوح البلدان للبلاذري. ولكن ذلك الشعر وإن صوّر لنا كثيراً من جوانب الصراع فإن العلماء بالشعر نفوا صحة جزء كبير منه، وقالوا: إن أكثره كان موضوعاً مفتعلاً، فيه أثر القصّاصين، وهم قوم حظهم من الشاعرية ضئيل. وابن إسحاق نفسه نبّه إلى ما في كتابه من منحول الشعر، واعتذر لنفسه بأنه رجل لا بصر له بالشعر، فقال: (لا علم لي بالشعر أوتى به فأحمله)[٢]، وقال عنه ابن سلّام: (وكان ممن أفسد الشعر وهجّنه وحمل كل غثاء منه: محمد بن إسحاق بن يسار)[٣]، ولم يرض بما اعتذر به عن نفسه فقال: (ولم يكن ذلك له عذراً، فكتب في السِّير أشعار الرجال الذين لم يقولوا شعراً قطّ، وأشعار النساء فضلاً

---

(١) تاريخ النقائض ص ٤٥، ١٢٢.

(٢) طبقات فحول الشعراء ١ : ٨.

(٣) المرجع السابق ١ : ٧.

عن الرجال، ثم جاوز ذلك إلى عاد وثمود، فكتب لهم أشعاراً كثيرة، وليس بشعر، إنما هو كلامٌ مؤلَّف معقود بقواف، أفلا يرجع إلى نفسه فيقول: من حمل هذا الشعر؟. ومن أدّاه منذ آلاف السنين؟. والله تبارك وتعالى يقول: ﴿ فقطع دابر القَوم الذين ظلموا ﴾[1]، وقد استدرك ابن هشام على ابن إسحاق كثيراً من هذه الأشعار، فأسقط بعضها وعقب على بعضها الآخر بمثل قوله: (وأكثر أهل العلم بالشعر ينكره) ونحو ذلك. وممن نقده أيضاً ابن النديم حيث قال: (ويقال: كان يُعمل له الأشعار ويؤتى بها، ويسأل أن يدخلها في كتابه السيرة فيفعل، فضمّن كتابه من الأشعار ما صار به فضيحة عند رواة الشعر)[2]. وإذا كان الأمر كذلك فما العمل؟. أنرفض كل ما ورد في تلك الكتب من أشعار هذه الفترة؟. أم نصم آذاننا عن أقوال الناقدين ونقبله كله؟. في الحقيقة إن الحذر من المنتحل المصنوع لا ينبغي أن يدفعنا إلى الغلو في الرفض والإسراف في الشك، وإلّا كانت الخسارة أشد، لأن هذا الشعر المنحول بالنسبة لهذه الفترة وإن حكمنا بكذب نسبته إلى أصحابه، فإنه يصوّر وقائع لها سند من التاريخ، وقد جعل بعضهم[3] هذه المطابقة من وسائل تصحيح النصوص وتوثيقها، وأدت المبالغة في تحري الصدق والاستجابة لشهوة التشكيك ببعضهم إلى إنكار جزء كبير من تراثنا، فجمعوا عليه بذلك شرّين، شرّ تعرضه للضياع لأسباب عديدة مختلفة، وشرّ التشكيك فيه، فإذا نحن في أرض عراء، وأمة ضائعة بدون تاريخ، ولعمري إن ذلك لهدف من أهداف أعدائنا يعملون من أجله ويتوقون إليه، ولا أُريد أن يفهم من كلامي هذا أنني أدعو إلى قبول ما ورد من أشعار في تلك الكتب أو غيرها دون تنقية أو تمحيص، فذلك ما لا يقول به عاقل، ولكنني أرفض بدعة الغلو في التشكيك والتعالم الزائد عن الحد، المفضي للضياع والفراغ، وقد قال أبو عمرو بن العلاء: (ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلّا

(١) المرجع السابق ١: ٨.
(٢) الفهرست لابن النديم ص ١٣٦ طبع المكتبة التجارية بمصر.
(٣) شعر المخضرمين ص ٥٢.

أقله، ولو جاءكم وافراً لجاءكم علم وشعر كثير)[1]، وقال ابن سلام نفسه: (ومما يدل على ذهاب الشعر وسقوطه، قلة ما بقي بأيدي الرواة والمصححين لطرفة وعبيد، اللذين صح لهما قصائد بقدر عشرٍ، وإن لم يكن لهما غيرُهن، فليس موضعهما حيث وضعا من الشهرة والتقدمة، وإن كان ما يْروى من الغثاء لهما، فليس يستحقان مكانهما على أفواه الرواة، ونرى أن غيرهما قد سقط من كلامه كلام كثير، غير أن الذي نالهما من ذلك أكثر)[2]، إن كلام ابن العلاء وابن سلّام يدل على ما أصيب به تراثنا من الضياع فلا نعرضه نحن بتشكيكنا مرة أخرى للإضاعة. وكأن ابن سلّام يجعل ضعف ما ينسب إلى شاعر ما عُرف بالقوة، سبباً في ردّ نسبة ذلك الشعر إليه: (وإن كان ما يروى من الغثاء... إلخ)، وليس الأمر على إطلاقه، إذ إن الشاعر لا يكون في جميع أطوار حياته ولا في كل أحواله على مستوى واحد من الإبداع، وما لم تثبت نسبته عند ابن سلّام قد تثبت نسبته عند غيره، وفوق كل ذي علم عليم، وقد روى ابن سلّام نفسه شيئاً في هذا المعنى فقال: (قال خلّاد بن يزيد الباهليّ لخلف بن حيّان أبي مُحرِز ـ وكان خلّادٌ حسن العلم بالشعر يرويه ويقوله ـ: بأي شيء ترد هذه الأشعار التي تُروَى؟. قال له: هل فيها ما تعلم أنت أنه مصنوع لا خير فيه؟. قال: نعم. قال: أفتعلم في الناس من هو أعلم بالشعر منك؟. قال: نعم. قال: فلا تنكرْ أن يعلموا من ذلك أكثر مما تعلمه أنت)[3]، وعلى كل حال لست أنا بصدد الدخول في موضوع توثيق شعر هذه الفترة أو نفيه، فذلك مطلب عسير ومهيع واسع يخرج بنا عن صلب هذه الدراسة، ولكنني أحببت أن أشير إلى هذه القضية حتى لا تغيب عن الأذهان، كما أحببت أن أشير إلى أن موقف ابن هشام لم يكن واحداً من هذا الشعر الذي حام حوله الشك، بل كان يفرق فيه بين نوعين، فكان يجزم بنفي بعضه، ويكتفي في البعض الآخر بترجيح النفي.

(١) الخصائص لابن جني ١: ٣٨٦ ط الدار، وطبقات فحول الشعراء ١: ٢٥.

(٢) طبقات فحول الشعراء ١: ٢٦.

(٣) المرجع السابق ١: ٧.

ومن أمثلة النوع الأول القصيدة المنسوبة لعليّ بن أبي طالب في يوم بدر، ونقيضتها المنسوبة للحارث بن هشام بن المغيرة، فقد قال[1] عنها: (ولم أر أحداً من أهل العلم بالشعر يعرفها ولا نقيضتها، وإنما كتبناها لأنه يقال: إن عمرو بن عبد الله بن جُدْعان قُتل يوم بدر، ولم يذكره ابن إسحاق في القتلى، وذكره في الشعر)، وسوف لا نجيز لأنفسنا الأخذ بهذا الشعر أو الاستشهاد به، فهو بالفعل شعر موضوع، ومع ذلك فقد يكون الذي وضعه، صنعه بإتقان، وراعى فيه خصائص شعر من نسبه إليهم.

ومن أمثلة النوع الثاني قصيدة حمزة بن عبد المطلب ونقيضتها للحارث بن هشام أيضاً، فقد قال عنها[2]: (وأكثر أهل العلم بالشعر ينكرها ونقيضتها)، وكذلك قال في قصيدة عبيدة بن الحارث بن المطلب في قطع رجله يوم بدر: (وبعض أهل العلم بالشعر ينكرها لعبيدة)[3]، وقد قبل بعض الدارسين كالأستاذ أحمد الشايب[4] كثيراً من هذه الأشعار، لأن العلماء بالشعر لم يُجمعوا على بطلانها، فاحتمال صحتها قائم إما بصفة راجحة أو مرجوحة، لأنها تساعد على استكمال الحدث التاريخي وتحديد معالم الصراع الفكري في تلك الفترة، وذلك مطلب مهم في رأب صدع تراثٍ أصابه كثير من الضياع.

ومن تلك الحرب الشعرية التي قامت بين مكة المشركة والمدينة المسلمة، وهو ما نسميه بالنقائض الإسلامية. قول ابن الزبعرَى السَّهْمي يبكي قتلى بدر[5]:

ماذا على بدْر وماذا حوله ... من فتيةٍ بيضِ الوجوه كرامِ

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢: ١١.

(٢) المرجع السابق ٢: ٨.

(٣) المرجع السابق ٢: ٢٣.

(٤) في كتابيه: تاريخ النقائض، وتاريخ الشعر السياسي.

(٥) السيرة النبوية لابن هشام ٢: ١٥، وتاريخ النقائض ص ١٣٣، غير أن ابن هشام نبه إلى أنها تروى أيضاً لغير ابن الزبعرى.

تـركـوا نُبَيْهـاً خلفـهمْ ومُـنبِّـهـا وابنَيْ ربيعـةَ خـيرَ خصْمٍ فِئام[1]

والحـارثَ الفيـاضَ يبـرُق وجهُـه كـالبـدر جَـلَّى لـيلةَ الإظـلام

والـعـاصَ ابـنَ مُـنبِّـه ذا مِـرَّةٍ رُمْحـاً تميـماً غـيرَ ذي أوصـام[2]

تَـنـمـي بـه أعـراقُـه وجـدُودُه ومـآثـرُ الأخـوال والأعـمـام

وإذا بكى بـاكٍ فـأعـول شَجْـوَه فعلى الرئيس الماجد ابنِ هشامِ

حيَّا الإلـه أبـا الـوليـد ورهـطَهُ رَبُّ الأنـام وخـصَّـهـم بـسـلام

وأجابه حسان بن ثابت بقوله[3]:

ابْـكِ، بكتْ عينـاكَ ثم تبـادرتْ بـدمٍ تُعَـلّ غـروبُهـا، سَجّـامِ

مـاذا بكيتَ بـه الـذين تتايعـوا هـلّا ذكـرت مـكـارمَ الأقْـوام[4]

وذكـرْتَ منّـا مـاجـداً ذا همّـةٍ سَمْـحِ الخـلائقِ صـادق الإقـدامِ

أعني النبيَّ أخـا المكـارمِ والنَّـدى وأبـرَّ من يـولي عـلى الإقسـام[5]

فلمِثله، ولمثـل مـا يـدعـو لـه كـان المـمـدَّحَ ثَمَّ غيرَ كَـهام[6]

ويلاحظ أن حسان أشار إلى الرسول ودعوته وأشاد بمكانته وبيَّن أنه أحق بالمدح، وأن أعداءه باغون، ومعنى هذا أن في النص سمات إسلامية ظاهرة، تختلف عن اتجاه ابن الزبعرى، إلاّ أن تعبيره بـربّ الأنام من التعبيرات غير المعهودة أيضاً في الجاهلية.

واستمرت هذه المناقضات النثرية والشعرية ترافق الأحداث الكبرى طيلة حياة الرسول ﷺ، وفي حروب الردة نجد المرتدين يسمون أبا بكر بأبي الفصيل، فيرد عليهم المسلمون: سترونه غدا أبا الفحول، وأول ما نلاحظه

---

(١) الفئام: الجماعات من الناس.

(٢) التميم: الطويل، والأوصام: جمع وصم وهو العيب.

(٣) المرجع السابق والديوان ص ٢٣٠.

(٤) تتايعوا: ألقوا بأنفسهم في الهلاك.

(٥) يولي: يحلف.

(٦) الكهام: الضعيف.

على النقائض الإسلامية أنها تحولت شيئاً فشيئاً إلى نوع آخر من الشعر جديد هو الشعر السياسي، ولم تعد كما كانت في الجاهلية محصورة في نطاق الفرد والقبيلة، وإن كانت القبيلة في واقعها أيضاً تمثل حدوداً سياسية للشاعر، ولم تتحول إلى تناول الأفراد كما آلت إليه حالها في العصر الأموي. وبعد مقتل عثمان رضي الله عنه بدأت الحزبية تتمخض بين المسلمين، والخلافات تزحف على كيان الأمة الإسلامية الفتيّة وتعمل على تقويض وحدتها وتغيير وجهتها، فكان فيهم عثمانيون، وعلويون وأمويون ثم خوارج، ووقف مع كل فئة شعراؤها وخطباؤها والداعون إليها، وكان بعض أولئك الشعراء والخطباء من المدينة، كحسان، فإن له عثمانية معروفة، وعائشة، وعلي بن أبي طالب.

و ـ نشاط بعض الأنواع النثرية

رغم مزاحمة الخطابة للشعر في العصر الجاهلي فإنه ظل الفن القولي المميز الذي تزدان به المجامع وتطرب له الأسماع، ويشغل من ذهن العربي كلّ مشغل، وحينما يفتش الباحثون بجانبه عن النثر لا يكادون يظفرون بغير أشتات من الخطب وبعضٍ من القصص والأسجاع والأمثال، يتطرق الشك إلى كثير منها، وتشير إليها أصابع الانتحال، نعم إنه كان لهذه الأنواع ولما افترضناه من نثر أدبي، وجوداً حقيقياً، ولكنها كانت تصعب على الحفظ والرواية، فلم تصل إلينا بكمية مرضية كالشعر، ولم يكونوا يعتمدون على التدوين، فلهذا كانت الغلبة للشعر من ناحيتين:

ولوع العرب بقوله وإنشاده، وولوعهم بروايته ونقله، وهو المستبد بكل مجالات القول في الحرب والسلم، وفي الفخر والهجاء والوصف والرثاء، وفي المناحي الفكرية أيضاً، ولم يستطع النثر الفني أن يعمق جذوره في الحياة الجاهلية، وذلك لعدم انتشار الكتابة من ناحية، ولغلبة الشعر عليهم من ناحية أخرى، فسلطان الشعر كان قويّاً على ملكاتهم دون شك قولاً وسماعاً، والقليل الذي وصلنا من النثر الجاهلي يؤكد أن النثر الفني لم يبلغ منهم مبلغ

الشعر، ولم يتعدّ في أغلب الأحيان ـ ما عدا الخطابة ـ بعض الفقرات القصيرة والنظرات الحكيمة، التي تبدو باهتة دون رواء إذا ما قيست بالشعر، كأن أصحابها لم يقصدوا منها إلى ما قصد إليه الشعر من إبداع وإمتاع. فلما جاء الإسلام تغيّر الحالُ، وتهيأت للنثر الأدبي منزلة كبيرة، وصلته بالحياة الجديدة ومكّنت له في قلوب الناس. فقد نزل القرآن الكريم بأسلوب نثري لا شعري، ومع ذلك فقد كان معجزاً ببيانه ساحراً في تصويره، فنيّاً في لفظه وتعبيره، وكذلك كانت الأحاديث النبوية، فالدعوة الإسلامية كان اعتمادها على النثر الفني المتمثل في القرآن والحديث، ولم يكن من وسائلها الشعر، وبهذا وضعت أمام أتباعها في المدينة وأمام العرب جميعاً نموذجاً جديداً قوياً، كان يدخل الحياة على استحياء، ولا يكاد يثبت أمام ضخامة منزلة الشعر، وبذلك عرف الناس أن النثر الفني لا يتساوى مع الشعر في البلاغة والفصاحة وقوة التأثير فقط، بل إنه قد يتفوق عليه ويعفّي على مكانته في قلوب الناس، كما هو الحال في القرآن وكلام الرسول الكريم. وأملت عليهم الحاجة استعمال الخطابة لنشر الدعوة وشرح مبادئها، وكانت كتبه ﷺ إلى الملوك ووصاياه لأصحابه وقوّاده، ثم ازدادت الخطب بانتشار المساجد وازدادت الرسائل إلى القواد والولاة، وازداد نقاشهم وجدلهم في مجالس الشورى والحكم، ونشأ إلى جانب ذلك نثر حواري يتم في لقاء أو مجلس بين اثنين أو أكثر، وهو نثر ممتع سنتعرض له في الباب الثاني، وبذلك اكتملت الصورة النثرية نشطة قوية في صدر الإسلام، والفضل في ذلك كله يرجع إلى ظهور الإسلام الذي لم يكن تغييراً دينياً اجتماعياً فقط، وإنما كان هزة ثقافية فنية أيضاً. كان من آثارها تنوع النثر الفني وتعدّد أغراضه.

ز ـ أثر الإسلام في الشكل والمضمون:

قد يكون في بعض النقاط السابقة وفاء بمؤدى هذه الفقرة، فالتغيير في مهمة الأدب وتحويل اللغة العربية إلى لغة فكر سماوي وحضارة غزيرة المنابع، هو أمر له علاقة وثيقة بالتغيير في المضمون، نضيف إليه اختفاء كثير

من الأغراض الشعرية التي لها صلة بالقيم الجاهلية أو من شأنها أن تحدث أيّ تصدع في بناء الجماعة الإسلامية. أما من حيث الشكل فإن القرآن هذّب اللغة من الحوشية ومن كل لفظ غريب، وسلك بها أسلوباً جزلاً له رونق وطلاوة مع وضوح القصد والوصول إلى الغرض من أقرب مسلك وأيسر طريق، وهو أسلوب تلذ بسماعه الآذان حين تسمعه، وتستمتع به القلوب حين تصغي إليه، ليس فيه زوائد ولا فضول، ولا ضعف ولا توعّر، (ليس له سابقة ولا لاحقة في العربية، هو الذي أقام عمود الأدب العربي منذ ظهوره، فعلى هديه أخذ الخطباء والكتاب والشعراء يصوغون آثارهم الأدبية مهتدين بديباجته الكريمة، وحسن مخارج الحروف فيه، ودقة الكلمات في مواضعها من العبارات، بحيث تحيط بمعناها، وبحيث تُجلّي عن مغزاها، مع الرصانة والحلاوة، وكان العرب ـ ولا يزالون ـ يتحفظونه، فهو معجمهم اللغوي والأدبي الذي ساروا على هداه، مهما اختلفت أقطارهم، أو تباعدت أمصارهم وأعصارهم)[1]، وقد حكوا أن مكرم عبيد من خطباء مصر المعدودين في العصر الحديث، وفارس الخوري من خطباء سوريا الكبار ووزير خارجية جمهوريتها الأولى كانا يحفظان القرآن الكريم وهما رجلان نصرانيان، وذلك ما هيأ لهما هذا القدر الخطابي العظيم.

وقد أقبل الصحابة رضوان الله عليهم على حفظه وتفهمه، فأخبروا أنهم كانوا إذا قرؤوا منه عشر آيات عكفوا عليها فحفظوها وعرفوا تفسيرها ومعناها وعملوا بما فيها، وترجموها عملاً وسلوكاً، وتعمّقوها فناً أدبياً وفيضاً إيمانياً وعقيدة إلْهيّة راسخة.

وفي الواقع إن تأثير الدعوة الإسلامية على الأدب في الحياة العربية كان كبيراً لا يستوعبه حصر ولا تضمه حدود، ورغم هذا فستكون فصول الباب الثاني مما يساعد على تحديد ذلك التأثير بشكل أكثر وضوحاً إن شاء الله[2].

* * *

(١) العصر الإسلامي للدكتور شوقي ضيف ص ٣٤ طبع دار المعارف ـ مصر ـ الطبعة ٥.

(٢) ستكون الفصول المشار إليها موضوع الكتاب السادس من هذه السلسلة إن شاء الله.



الفهرس

الفصل الثاني
أثر الإسلام في الثقافة والأدب



صدر للمؤلف

١ ـ شعراء من أرض عبقر ـ الجزء الأول ـ الطبعة الأولى ـ نادي المدينة المنورة الأدبي.

٢ ـ شعراء من أرض عبقر ـ الجزء الثاني ـ الطبعة الأولى ـ نادي المدينة المنورة الأدبي.

٣ ـ الرائد في علم الفرائض ـ الطبعة الرابعة ـ مكتبة دار التراث (المدينة المنورة) ـ مؤسسة علوم القرآن (دمشق ـ بيروت).

٤ ـ شعر الحرب في الجاهلية بين الأوس والخزرج ـ الطبعة الثانية ـ مؤسسة علوم القرآن (دمشق ـ بيروت).

٥ ـ عارف حكمة: حياته ومآثره ـ وهو شهي النغم في ترجمة شيخ الإسلام عارف الحكم ـ لأبي الثناء الألوسي (تحقيق) الطبعة الأولى ـ مكتبة دار التراث (المدينة المنورة) ـ مؤسسة علوم القرآن (دمشق ـ بيروت).

٦ ـ المدينة المنورة في العصر الجاهلي (الحياة الاجتماعية والسياسية والثقافية والدينية) ـ الطبعة الأولى ـ مؤسسة علوم القرآن (دمشق ـ بيروت).

٧ ـ المدينة المنورة في العصر الجاهلي (الحياة الأدبية) ـ الطبعة الأولى ـ مكتبة دار التراث (المدينة المنورة) ـ مؤسسة علوم القرآن (دمشق ـ بيروت).

٨ ـ المدينة في صدر الإسلام (الحياة الاجتماعية والسياسية والثقافية) ـ الطبعة الأولى ـ مكتبة دار التراث (المدينة المنورة) ـ مؤسسة علوم القرآن (دمشق ـ بيروت).

٩ ـ الفصول في سيرة الرسول ـ للحافظ ابن كثير ـ الطبعة الثالثة ـ تحقيق بالاشتراك

عدد
٢٥

مع الأستاذ محيي الدين مستو ـ مكتبة دار التراث (المدينة المنورة) ـ مؤسسة علوم القرآن (دمشق ـ بيروت).

١٠ ـ المقاصد السنية في الأحاديث الإلهية ـ للحافظ علي بن بلبان المقدسي ـ الطبعة الأولى ـ تحقيق بالاشتراك مع الأستاذ محيي الدين مستو ـ مكتبة دار التراث ـ (المدينة المنورة) ـ مؤسسة علوم القرآن ـ (دمشق ـ بيروت).

١١ ـ أمجاد الرياض ـ (ملحمة شعرية) ـ الطبعة الأولى ـ دمشق.

١٢ ـ غناء الجرح ـ(ديوان شعر) ـ الطبعة الأولى ـ نادي المدينة المنورة الأدبي.

١٣ ـ همسات في أذن الليل (ديوان شعر) ـ الطبعة الأولى ـ نادي المدينة المنورة الأدبي.